تقديم

"يُخْرِجُ مِنْ كَنْزِهِ جُدُداً وَعُتَقَاءَ" (مت١٣: ٥٢).. "وَإِنْ مَاتَ، يَتَكَلَّمْ بَعْدُ" (عب١١: ٤).

بعلم متنوع ومتسع مع تفاسير كثيرة ودقيقة تعلَّمنا من أبينا مثلث الرحمات نيافة الحبر الجليل سيدنا الأنبا بيشوي ومازلنا نتعلم من كنوز علمه ومعرفته الغزيرة في مجموعة من الكتب تصدر عن موضوعات مختلفة من عظات وتعاليم لسيدنا المطران الأنبا بيشوي يقوم بتجميعها وإعدادها للطباعة والنشر الأمهات راهبات دير القديسة العفيفة دميانة؛ وذلك لنستنشق منها عطر رائحة كاتبها، ومِن علمه الغزير، وما علَّم به طوال نصف قرن هي سنوات خدمة نيافته وذلك وفاءً وعرفاناً بتعب نيافته في تعمير الدير وإعادة الحياة الرهبانية به والاهتمام بالحياة الروحية داخل الدير بأبوة حانية ورعاية كاملة حتى أصبح الدير من أكبر وأقدم الأديرة الأثرية للراهبات في كنيستنا القبطية الأرثوذكسية.

نطلب من ربنا يسوع المسيح أن يكون لإصدار هذه الكتب الفائدة المرجوة لكل من يقرأ وينهل منها.

بصلوات وشفاعات القديسة العذراء مريم والقديسة العفيفة دميانة والأربعين عذراء وبصلوات قداسة البابا المعظم الأنبا تواضروس الثاني أطال الله حياته وحفظه للكنيسة ولشعبه.

الأنبا ماركوس

أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري

ورئيس دير القديسة دميانة بالبراري

مقدمة

هذا الكتاب هو مجموعة مقالات روحية أو محاضرات تعليمية كتبها بيده الطاهرة مثلث الرحمات نيافة الأنبا بيشوي –نيح الله نفسه البارة في فردوس النعيم ونفعنا بصلواته– كما كان يلقيها كعظات أسبوعية في كلٍ من كنيسة الشهيد مار جرجس بكفر الشيخ وكنيسة السيدة العذراء بدمياط وذلك في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي. ثم توقفت هذه السلسلة القيمة فجأة بسبب الظروف التي مرت بها الكنيسة عام ١٩٨١م وغياب نيافته عن الإيبارشية حتى عام ١٩٨٥م.

ولِما لهذه المقالات من قيمة في فهم قصة الخلاص التي تعتبر جوهر العقيدة المسيحية، وجدنا أن نقوم بنشرها لتعم الفائدة جميع شعب الكنيسة؛ الكنيسة التي أفنى نيافته صحته وجهده وعمره في خدمتها.

"قصة الخلاص" هذه تبدأ ببداية الخليقة وخلقة الملائكة ثم سقوط الشيطان، ثم تنتقل إلى خلقة الإنسان وسقوطه، وما نتج عن ذلك، ثم بداية تدبير الخلاص مع التركيز على بعض الأبرار مثل أخنوخ وإبراهيم ويعقوب.

ربما اكتملت مراحل قصة الخلاص في سلسلة شرح "وحدة الكتاب المقدس" التي كانت تذاع كحلقات في قناة "مي سات" والتي سوف تنشر في كتاب آخر لاحقًا بمشيئة الرب.

فليجعل الرب هذا الكتاب سبب بركة ونفع لكل من يقرأه بصلوات قداسة البابا الأنبا تواضروس الثاني بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، ونيافة الأنبا ماركوس أسقف دمياط وكفر الشيخ والبراري ورئيس دير القديسة دميانة بالبراري، الذي نشكره من أجل تشجيعه لنا لإخراج كتب أبينا نيافة الأنبا بيشوي نيح الله روحه ونفعنا بصلواته.

راهبات دير القديسة دميانة بالبراري

الصوم المقدس ٢٠١٩م

لقد دبر الله الخلاص وصنعه
فما هي قصة هذا الخلاص الإلهي العجيب؟

الباب الأول
تدبير الخلاص وخلقة العالم

أولاً: تدبير الخلاص

لقد دبَّر الله الخلاص للإنسان قبل الأزمنة الأزلية أي قبل خلق الملائكة والعالم المنظور وقبل خلقة الإنسان نفسه. فقد شاءت المقاصد الإلهية السامية أن يُظهر غنى ووفور نعمته ومحبته في خلاص البشر الذين أحبهم.

يتكلم معلمنا بولس الرسول عن الله "الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً، لاَ بِمُقْتَضَى أعْمَالِنَا، بَلْ بِمُقْتَضَى **الْقَصْدِ** وَالنِّعْمَةِ الَّتِي أعْطِيَتْ لَنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ **قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ**، وَإِنَّمَا أظْهِرَتِ الآنَ بِظُهُورِ مُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي أبْطَلَ الْمَوْتَ وَأَنَارَ الْحَيَاةَ وَالْخُلُودَ بِوَاسِطَةِ الإِنْجِيلِ" (٢تي١: ٩ ، ١٠).

لقد كان تدبير الخلاص سرًا مكتومًا لم تتضح معالمه الحقيقية إلا بمجيء المخلص. ولكن كل ما أعلنه الله قبل مجيء السيد

المسيح عن الخلاص كان ظلاً للأمور العتيدة. ولم يَعرِف هذا السر أحدًا، ولا ملائكة الله أنفسهم: "السِّرِّ **الْمَكْتُومِ** مُنْذُ الدُّهُورِ وَمُنْذُ الأَجْيَالِ، لَكِنَّهُ الآنَ قَدْ أظْهِرَ لِقِدِّيسِيهِ" (كو١: ٢٦).

لقد أعلن الله بشارة الخلاص المفرحة بالإنجيل "وَأُنِيرَ الْجَمِيعَ فِي مَا هُوَ شَرِكَةُ **السِّرِّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ** فِي اللهِ خَالِقِ الْجَمِيعِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ. لِكَيْ يُعَرَّفَ الآنَ عِنْدَ الرُّؤَسَاءِ وَالسَّلاَطِينِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ بِوَاسِطَةِ الْكَنِيسَةِ بِحِكْمَةِ اللهِ الْمُتَنَوِّعَةِ، حَسَبَ قَصْدِ الدُّهُورِ الَّذِي صَنَعَهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا" (أف٣: ٩-١١).

الخلاص الذي دبره الله للإنسان يُفرِّح الخليقة كلها (أنظر رو ٨: ٢١-٢٣)، إذ أنه يقدِّم للجميع البرهان الواضح على أبوة الله ومحبته للخليقة العاقلة. لقد جمع السيد المسيح فيه كل شيء ما في السموات وما على الأرض. وقد سبق الرب فعيَّن مختاريه من البشر (أنظر رو ٨: ٢٩، ٣٠) ليكون هذا سببًا لمدح مجد نعمته من قِبَل الخليقة كلها. "كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ (أي في المسيح) قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ... لِمَدْحِ مَجْدِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا علينَا فِي الْمَحْبُوبِ... لِتَدْبِيرِ مِلْءِ الأَزْمِنَةِ، لِيَجْمَعَ

كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا على الأَرْضِ" (أف١: ٤-١٠).

فذبيحة الخلاص إذن جمعت السمائيين والأرضيين في **شركة** محبة الله "وَأُنِيرَ الْجَمِيعَ فِي مَا هُوَ شَرِكَةُ السِّرِّ **الْمَكْتُومِ**" (أف٣: ٩). وصارت هذه الذبيحة مائدة روحية يلتف حولها الكل ويفرح بسببها الجميع، وصارت الخليقة تقدّم شكرًا لله من خلالها. وسر الشكر أو الإفخارستيا تقدم به الكنيسة مع السمائيين شكرها لله على الخلاص الذي صنعه لأجلها. فالخليقة كلها تشكر الله بالإفخارستيا أي بذبيحة الصليب. وسوف يبقى هذا الشكر إلى أبد الدهور كموضوع لتسبيح السمائيين والبشر.

ثانيًا: خلقة العالم

قد يسأل سائل: إذا كان الله كائنًا منذ الأزل في سعادة غامرة وفرح لا ينطق به. **فلماذا أوجد الخليقة وهو لم يكن محتاجًا لها؟**

إن من يقول ذلك يكون كمن يسأل رسامًا بارعًا: لماذا رسمت هذه اللوحة الرائعة الجمال؟! أو كمن يسأل موسيقيًا

موهوبًا: لماذا عزفت هذه المقطوعة الشجية؟!! أو كمن يسأل شاعرًا رقيقًا: لماذا أنشأت هذه الأبيات المتناغمة؟!!

لا شك أن الله يشعر بسعادة غامرة في إبداعه للكون الجميل الذي يعبّر عن كنوز الجمال والقدرة والحكمة المخبأة فيه. لهذا يذكر الكتاب أن الله بعد إتمامه للخلق "رَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا" (تك١: ٣١). إن هذا ما يسر قلب الله المحب للحكمة والجمال الذي ينثر حوله كنوزًا من المجد البديع.

كما أن الله حينما أوجد الكائنات العاقلة فقد سكب فيها محبته وأعلن لها ذاته وأعطاها أن تبادله حبًا بحب وبهذا انتشر الحب والخير. ألا يمكن أن يكون هذا سببًا كافيًا لإيجاد الخليقة؟ وإذا كانت رؤية الله ومعرفته مبهجة بهذا المقدار الفائق، ألا يكون من المناسب جدًا أن يخلق الله من الكائنات من يستطيع أن يتنعّم برؤيته ويسعد بها.

إن الله من أجل خيريته وصلاحه قد أعطى للخليقة نعمة الوجود لكي تشاركه سعادته وأفراحه الأزلية، إذ لم يشأ أن ينفرد بالسعادة وحده. وصارت علاقة الله بالخليقة هي صورة لعلاقة الحب الأزلي بين الأقانيم.

الله في ثالوثيته مارس الحب أزليًا، وفي وحدانيته مارس الحب نحو الخليقة. وهذا هو معنى أنه لم يشأ أن ينفرد بالوجود وحده.

أي أن تبادل المحبة بين الأقانيم داخليًا في الثالوث القدوس، كان هو الأصل الذي بُنيت عليه صورة العلاقة بين الثالوث الواحد في الجوهر والخليقة.

فكما أن الله في أزليته الخاصة مارس الحب المتبادل كثالوث، هكذا كخالق واحد مارس الحب بينه وبين الخليقة بعطية واحدة.

وقد أعطى الله للخلائق العاقلة إرادة حرة، ولهذا فإن سعادة هذه الخلائق تتوقف على التوافق الكامل بين إرادتها وشريعة الله. فالله يطلب من كل خلائقه خدمة المحبة النابعة من تقديرهم لصفاته وارتباطهم بمحبته كينبوع للخير والحياة. إنه لا يسر بالطاعة التي يُكَره عليها المخلوق، بل يقدِّم للجميع إرادة حرة حتى يقدموا له خدمة طوعية.

بعد أن تكلمنا عن أسباب خلق الله للعالم نتكلم عن زمن الخلق ونوعيته.

زمن خلق الله للعالم

الله أزلي كائن قبل الأزمان أما الزمن فمخلوق ذو مقاييس. الأزلية تعني أن الله يملأ جميع الأزمنة بكينونته كقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات **{أنت الكائن في كل زمان}** (القداس الغريغوري). إن كينونة يهوه لا تقاس بزمن مهما طال أمده. وقد أحسن الشاعر "لامارتين" بقوله "إن كينونة يهوه لا تحسب بالقرون والأيام، فيومه يوم أزلي **وهو الكائن على الدوام**". فليست الأزلية والأبدية زمنًا محدودًا، بل هي شيء يختلف عن ذلك كثيرًا. **فإن الزمن ليس جزءًا من الأزلية وما هو إلا مثل ظل لها، وظل الجسم ليس جزءًا من الجسم.**

وحينما نقرأ قول الكتاب المقدس "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ" (تك١:١)، نفهم أن عملية الخلق بدأت مع بداية الزمن. أما الله فكائن قبل الزمن، والكلمة أيضًا كان كائنًا عند الله وبه خلق كل شيء "فِي الْبَدْءِ **كَانَ** الْكَلِمَةُ" (يو١:١). أي حينما بدأ الزمن كان الكلمة كائنًا. والفعل اليوناني "**كان**"[١]

[١] ην (إين) فعل الكينونة في زمن الماضي المتصل مع ضمير الغائب المفرد.

المذكور في هذه الآية يعني **الكينونة مع الاستمرار** وليس "الصيرورة".

نوعية الخلق والمخلوقات

خلق الله بقدرته –من العدم– العالم غير المنظور كما خلق العالم المنظور. ويشمل العالم غير المنظور الطغمات المسائية، أما العالم المنظور فيشمل النجوم والكواكب والأرض وما عليها من مخلوقات بما في ذلك الطبيعة البشرية التي هي انعكاس صورة الله على المادة المنظورة وقمة التعبير عن التجاوب بين الخليقة المنظورة وخالقها.

خلقة الملائكة

يقول علماء الكتاب المقدس أن الملائكة خلقوا في اليوم الأول حينما خلق الله النور "وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ نُورٌ فَكَانَ نُورٌ" (تك١: ٢). وقد استندوا في رأيهم هذا إلى أن للملائكة طبيعة نورانية. على أنه ليس هناك ما يمنع أن يكونوا قد خلقوا قبل تكوين العالم المنظور، كما نستنتج من حديث الله مع أيوب: "فَإِنِّي أَسْأَلُكَ فَتُعَلِّمُنِي. أَيْنَ كُنْتَ حِينَ أَسَّسْتُ الأَرْضَ؟ أَخْبِرْ

إِنْ كَانَ عِنْدَكَ فَهْمٌ. مَنْ وَضَعَ قِيَاسَهَا؟ لأَنَّكَ تَعْلَمُ! أَوْ مَنْ مَدَّ عليهَا مِطْمَارًا؟ على أَيِّ شَيْءٍ قَرَّتْ قَوَاعِدُهَا أَوْ مَنْ وَضَعَ حَجَرَ زَاوِيَتِهَا. عِنْدَمَا تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعًا وَهَتَفَ جَمِيعُ بَنِي اللهِ" (أي ٣٨: ٣-٧). و"كَوَاكِبُ الصُّبْحِ" هنا من الواضح أنها تشير إلى الملائكة أو إلى فريق منهم. كما أن كلمة "بَنِي اللهِ" وردت أكثر من مرة في نفس السفر وهي تعني الملائكة. ومن هذه المعاني يحتمل أن يكون خلق الملائكة سابق لخلق العالم المنظور. وهذا الرأي هو رأي القديس غريغوريوس الثيئولوغوس.

طبيعة الملائكة

من المعروف أن الملائكة أرواح وهذا أمر يؤكده الكتاب المقدس في قول المرتل "الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَهُ رِيَاحًا وَخُدَّامَهُ نَارًا مُلْتَهِبَةً" (مز١٠٤: ٤). وإن كنا نجد كلمة "أرواح" في الآية السابقة مترجمة "رياح" في الترجمة التي بين أيدينا فالسبب في ذلك راجع إلى أن الكلمة اليونانية πνευμα (بنفما) تحمل المعنيين: "ريح" و"روح".

ويؤكد معلمنا بولس الرسول كون الملائكة أرواحًا بقوله "أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحًا خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ" (عب١: ١٤).

وقد تباينت آراء العلماء في رأيهم بخصوص طبيعة الملائكة الروحانية هل هم أرواح أم أن لهم أجسادًا روحانية، حسبما يقول بولس الرسول "أَجْسَامٌ سَمَاوِيَّةٌ وَأَجْسَامٌ أَرْضِيَّةٌ.. يُوجَدُ جِسْمٌ حَيَوَانِيٌّ وَيُوجَدُ جِسْمٌ رُوحَانِيٌّ" (١كو١٥: ٤٠ ،٤٤). فالرسول بولس هنا يحاول أن يوضّح أننا بعد القيامة سنأخذ أجسامًا روحانية غير هيولية (مادية) كأجسامنا التي نحيا بها الآن على الأرض، إنما ستكون لنا أجسام روحانية.

وللملائكة إدراك وفهم وعلم محدود ولكنه يفوق إدراك وفهم وعلم الإنسان. كما أن لهم طبيعة خالدة، أي أنهم لا يموتون. والدليل على ذلك ما قاله السيد المسيح له المجد "وَلَكِنَّ الَّذِينَ حُسِبُوا أَهْلاً لِلْحُصُولِ على ذَلِكَ الدَّهْرِ وَالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ لاَ يُزَوِّجُونَ وَلاَ يُزَوَّجُونَ. إِذْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَمُوتُوا أَيْضًا لأَنَّهُمْ مِثْلُ الْمَلاَئِكَةِ" (لو٢٠: ٣٥ ،٣٦).

ولا يعرف أحد عدد الملائكة لكثرتهم "وَنَظَرْتُ وَسَمِعْتُ صَوْتَ مَلاَئِكَةٍ كَثِيرِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ وَالْكَائنَاتِ الحية

وَالسفراء، وكَانَ عَدَدُهُمْ **رَبَوَاتِ رَبَوَاتٍ** وَأُلُوفَ أُلُوفٍ" (رؤ٥: ١٠). والربوة عشرة آلاف. وربوة الربوة مائة مليون فعبارة ربوات ربوات تعني مئات الملايين.

طغمات الملائكة

الطغمة الأولى: تضم السيرافيم والكاروبيم (الشاروبيم) والكراسي (العروش).

الطغمة الثانية: وتشمل الأرباب والأجناد والسلاطين والقوات.

الطغمة الثالثة: وتضم رؤساء الملائكة والملائكة.

الطغمة الأولى

[السرافيم والكاروبيم (الشاروبيم) والكراسي (العروش)]

❖ السرافيم

سرافيم لفظ عبري צרפים وهو جمع مفرده ساروف צרופ ومعناه "المتوهج" الذي منظره كلهيب نار متقدة. وهذا يرمز إلى اشتعال محبتهم لله. وقد رآهم إشعياء النبي حول العرش الإلهي فقال "رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا على كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ

وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ. السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ. بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ وَبَاثْنَيْنِ يَطِيرُ. وَهَذَا نَادَي ذَاكَ: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ... فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ على الْمَذْبَحِ. وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ" (أش٦: ١–٧). ونستطيع أن نقول: إن طقس السرافيم هو طقس التسبيح والوجود الدائم أمام العرش الإلهي والتمتع بالحضرة الإلهية.

❖ الكاروبيم أو الشاروبيم

كاروبيم لفظ عبري כרבים وهو جمع مفرده كاروب כרוב ومعناه "ملء المعرفة". والكاروبيم ملائكة معيّنون فليس كل ملاك كاروبًا. بل هم قسم مختار من الملائكة يقتربون من الله أكثر من غيرهم من الجنود العلوية. ويُعرَفون بملائكة الحضرة الإلهية والملائكة المقربين. وقد ورد ذكر هذه الطغمة كثيرًا في الكتاب المقدس بل لعلهم أول من ذكروا. فما أن طرد الإنسان من الفردوس حتى أقام الله "**الْكَرُوبِيمَ**

وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ" (تك٣: ٢٤). وورد ذكره كثيرًا في الحديث عن خيمة الاجتماع وهيكل العهد القديم. وقد أمر الله موسى بأن يضع كاروبين من الذهب يظللان على تابوت العهد "يَكُونُ **الْكَرُوبَانِ بَاسِطَيْنِ أَجْنِحَتَهُمَا إِلَى فَوْقُ مُظَلِّلَيْنِ** بِأَجْنِحَتِهِمَا على الْغِطَاءِ وَوَجْهَاهُمَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى الآخَرِ... وَأَنَا أَجْتَمِعُ بِكَ هُنَاكَ **وَأَتَكَلَّمُ مَعَكَ مِنْ على الْغِطَاءِ مِنْ بَيْنِ الْكَرُوبَيْنِ** اللَّذَيْنِ على تَابُوتِ الشَّهَادَةِ بِكُلِّ مَا أُوصِيكَ بِهِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ" (خر٢٥: ٢٠و٢٢). كان الله يكلم موسى وهارون من بين الكاروبين اللذين يفسر اسميهما بملء المعرفة والفهم. وقد استخدم رسم الكاروبيم في أغلب نقوش خيمة الاجتماع والهيكل. وارتبطت هذه الطغمة من الملائكة بالله كثيرًا حتى قيل في المزامير "طَأْطَأَ السَّمَاوَاتِ وَنَزَلَ وَضَبَابٌ تَحْتَ رِجْلَيْهِ. **رَكِبَ على كَرُوبٍ وَطَارَ** وَهَفَّ على أَجْنِحَةِ الرِّيَاحِ" (مز١٨: ٩-١٠). وذكر أن الله يجلس على الكاروبيم "اَلرَّبُّ قَدْ مَلَكَ. تَرْتَعِدُ الشُّعُوبُ. **هُوَ جَالِسٌ على الْكَرُوبِيمِ**" (مز٩٩: ١).

وقد كان الشيطان نفسه من طغمة الكاروبيم التي تعني "ملء المعرفة". ولعل هذا يكشف لنا كيف سقط الشيطان..

فالمعرفة وحدها تنفخ إذا ما انفصلت عن الله. إنها تتحول إلى غرور بالعلم. والمعرفة تؤدي بصاحبها إلى السقوط. ولذا يقول معلمنا بولس الرسول إن "الْعِلْمُ يَنْفُخُ وَلَكِنَّ الْمَحَبَّةَ تَبْنِي" (١كو٨: ١). ولما كان الشيطان رئيس ملائكة فمعنى ذلك أنه بحكم رتبته كانت خدمته متصلة بالعرش الإلهي مباشرةً. وقال عنه الوحي الإلهي في سفر حزقيال "**أَنْتَ الْكَرُوبُ الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلِّلُ**. وَأَقَمْتُكَ. على جَبَلِ اللَّهِ الْمُقَدَّسِ كُنْتَ. بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ تَمَشَّيْتَ" (حز٢٨: ١٤).

وسوف نتكلم بأكثر إيضاح عن خلقة الشيطان ورتبته ومعصيته وسقوطه وما نتج عن هذا السقوط.

❖ الكراسي أو العروش

هؤلاء هم النوع الثالث من الطغمة الأولى ومنهم الأربعة الأحياء غير الجسدانيين الذين ذكروا في سفر الرؤيا: "وَفِي وَسَطِ الْعَرْشِ وَحَوْلَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةُ كَائِنَاتٍ حَيَّةٍ مَمْلُوءةٌ عُيُونًا مِنْ قُدَّامٍ وَمِنْ وَرَاءٍ: والكَائِنُ الْحَيُّ الأَوَّلُ شِبْيهٌ بأَسَدٍ، والكَائِنُ الْحَيُّ الثَّانِي شِبْيهٌ بعِجْلٍ، والكَائِنُ الْحَيُّ الثَّالِثُ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ وَجْهِ إِنْسَانٍ، والكَائِنُ الْحَيُّ الرَّابِعُ شِبْيهٌ بنَسْرٍ طَائِرٍ.

وَالْكَائِنَاتُ الحَيَّةُ الأَرْبَعَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ ومَمْلُوءةٌ عُيُونًا حَوْلَهَا وَمِنْ دَاخِلٍ، وَلاَ تَكفُ نَهَارًا ولَيْلاً قَائِلَةً: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، الرَّبُّ الإِلَهُ الْضَّابطُ الكُلِّ، الَّذِي كَانَ وَالْكَائِنُ والَّذِي يَأْتِي"[٢] (رؤ٤: ٦–٨).

والصفات التي ذكرت عن الأربعة كائنات الحية هي نفس الصفات التي تنسب إلى الكاروبيم. **فهم ممتلئون أعينًا من قدام ومن وراء** علامة الامتلاء من المعرفة وكثرة الفهم، هم يفهمون الماضي والمستقبل المعلن لهم (العهدين القديم والجديد). **ويعتبرهم البعض من طغمة الكاروبيم.**

وما يحلو لنا أن نتأمل فيه هو شبه هذه الكائنات والمدلولات الروحية التي تشير إليها. إننا نرى في وسط العرش الإلهي وحوله ما **يشرح لنا الخلاص** الذي أعده الله لنا قبل الأزمنة الأزلية. شبه الإنسان يؤكد محبة الله للبشر قبل أن يخلقهم. وقد صنع السيد المسيح الفداء في أربع مراحل متلاحمة وهي التجسد والصلب والقيامة والصعود.

---

[٢] بحسب ترجمة فان دايك المصححة Revised Van Dyke، دار الكتاب المقدس ٢٠١٠.

شبه الإنسان: يشير إلى تجسد وتأنس السيد المسيح ومجيئه كابن للإنسان.

شبه العجل: يشير إلى السيد المسيح كخادم للخلاص وكذبيحة مثل العجل.

شبه الأسد: يشير إلى قوته الإلهية ومعجزاته وانتصاره على الشيطان وقيامته من الأموات.

شبه النسر: يشير إلى صعود السيد المسيح إلى السماء ليشفع فينا أمام الآب السماوي.

وقد قيل أن كل واحد من هذه الحيوانات يرمز إلى أحد البشائر الأربعة للإنجيل: شبه الإنسان يرمز إلى "إنجيل متى"، وشبه العجل يرمز إلى "إنجيل لوقا"، وشبه الأسد يرمز إلى "إنجيل مرقس"، وشبه النسر يرمز إلى "إنجيل يوحنا". وهذا ما نراه في الأيقونات الأثرية الخاصة بالإنجيليين الأربعة.

وقد رأى حزقيال في رؤياه مناظر روحانية عجيبة منها أربعة بكرات روحانية بجانب الكاروبيم ولكل واحد أربعة أوجه "وَخَرَجَ مَجْدُ الرَّبِّ مِنْ على عَتَبَةِ الْبَيْتِ **وَوَقَفَ على الْكَرُوبِيمِ.** فَرَفَعَتِ الْكَرُوبِيمُ أَجْنِحَتَهَا وَصَعِدَتْ عَنِ الأَرْضِ

قُدَّامَ عَيْنَيَّ. عِنْدَ خُرُوجِهَا كَانَتِ الْبَكَرَاتُ مَعَهَا، **وَوَقَفَتْ عِنْدَ مَدْخَلِ بَابِ بَيْتِ الرَّبِّ الشَّرْقِيِّ، وَمَجْدُ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ عليهَا مِنْ فَوْقُ**" (حز ١٠: ١٨-١٩).

لاشك أن العرش الإلهي هو من طغمة مصاحبة لطغمة الكاروبيم ومشابهة لها. وقد صارت العذراء مريم أرفع من الشاروبيم لأنها حملت كلمة الله في أحشائها.

الطغمة الأولى وخدمة الإفخارستيا

الكنيسة تُعلِّم بأن الشاروبيم والسرافيم يشتركون في خدمة الذبيحة الإلهية في سر الإفخارستيا (أي سر الشكر). فالشماس ينذر الشعب مع الإكليروس لكي يرفعوا أعينهم إلى ناحية المشرق وينظروا المذبح وجسد ودم عمانوئيل إلهنا موضوعين عليه والملائكة ورؤساء الملائكة قيام، "الشاروبيم الممتلئون أعينًا والسرافيم ذوي ستة أجنحة يسترون وجوههم من بهاء عظمة مجده". ولعل هذا يفسر لنا رؤيا إشعياء النبي التي رآها في الهيكل حينما رأى وسمع تسبيح السرافيم كما ذكرنا سابقًا: "فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ على الْمَذْبَحِ. وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ

قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ" (إش٦: ٦-٧). هذه الجمرة تشير إلى جسد السيد المسيح الذي يُعطَى لمغفرة الخطايا، وإلى دمه القدوس الذي يُطهِّر من الخطية وينجي من الهلاك حينما تتخضب بها شفاهنا في سر القربان المقدس. والسرافيم هنا يشير إلى كهنة العهد الجديد الذين قال عنهم القداس الغريغوري {أعطيت الذين على الأرض تسبيح السرافيم} ولذلك يقول الكاهن في القداس {قدوس} ثلاث مرات في بدء صلاة التقديس. كل ذلك يفسر لنا قول معلمنا بولس الرسول عن الملائكة إن جميعهم أرواحًا مرسلة للخدمة.

فبالرغم من أن الشاروبيم والسرافيم هم من ملائكة الحضرة الإلهية إلا أنهم يأتون ويشاركونا في صلوات وخدمة القداس الإلهي. وما ذلك إلا لحضور السيد المسيح شخصيًا على المذبح، وتأتي معه ملائكة الطغمة الأولى الخادمة للعرش. إن هذه الملائكة تشتهي أن تطلع على الأسرار المقدسة التي وهبها الرب لنا بمحبته. وقد رآهم يوحنا اللاهوتي في رؤياه يرسلون تسبيح الغلبة والخلاص الذي لنا.. فهذه هي ترنيمة السمائيين الجديدة التي يحلو لهم أن يرددوها. فبعد أن كانت

تسبحتهم الأولى تتجه إلى شكر الله وتمجيده لأنه أعطى نعمة الوجود للخليقة "أَنْتَ مُسْتَحِقٌّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ **أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ**، وَهِيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ" (رؤ٤ :١١)، صاروا بعد إتمام الفداء يترنمون بترنيمة جديدة تدور كلها حول محبة الله للخليقة التي أُعلنت على الصليب "مُسْتَحِقٌّ أَنْتَ... **لأَنَّكَ ذُبِحْتَ وَاشْتَرَيْتَ لِلَّهِ بِدَمِكَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَشَعْبٍ وَأُمَّةٍ**" (رؤ٥: ٩). ونظر وسمع يوحنا اللاهوتي "وَنَظَرْتُ وَسَمِعْتُ صَوْتَ مَلاَئِكَةٍ كَثِيرِينَ حَوْلَ الْعَرْشِ وَالْكَائنَاتِ الحيَّة وَالشُّفعاء، وكَانَ عَدَدُهُمْ رِبَوَاتِ رِبَوَاتٍ وَأُلُوفَ أُلُوفٍ، قَائِلِينَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: مُسْتَحِقٌّ هُوَ **الْحَمَلُ الْمَذْبُوحُ** أَنْ يَأْخُذَ الْقُدْرَةَ وَالْغِنَي وَالْحِكْمَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْكَرَامَةَ وَالْمَجْدَ وَالْبَرَكَةَ" (رؤ٥: ١١-١٢). وسوف تبقى هذه الترنيمة الجديدة إلى أبد الدهور هي موضوع تسبيح وتمجيد الخليقة كلها "وَكُلُّ خَلِيقَةٍ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَعلى الأَرْضِ وَتَحْتَ الأَرْضِ، وَمَا على الْبَحْرِ، كُلُّ مَا فِيهَا، سَمِعْتُهَا قَائِلَةً: لِلْجَالِسِ على الْعَرْشِ وَ**لِلْحَمَلِ** الْبَرَكَةُ وَالْكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ" (رؤ٥: ١٣). فمن خلال ذبيحة الصليب (وامتدادها ذبيحة الإفخارستيا في

الكنيسة) تقدِّم الخليقة كلها شكرًا لله على الخلاص الذي صنعه لأجلنا. إنها شركة الحب في المسيح يسوع ربنا...

الشيطان ومعصيته وسقوطه

لقَّبه الوحي الإلهي في سفر إشعياء "**زُهَرَة بنت الصُّبح**" هذا اللقب ذُكر عنه قبل معصيته وسقوطه. ويتضح ذلك من قول الكتاب "كَيْفَ سَقَطْتِ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهَرَةُ بِنْتَ الصُّبْحِ... وَأَنْتَ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللَّهِ وَأَجْلِسُ على جَبَلِ الاجْتِمَاعِ فِي أَقَاصِي الشِّمَالِ. أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ السَّحَابِ. **أَصِيرُ مِثْلَ الْعلي**. لَكِنَّكَ انْحَدَرْتَ إِلَى الْهَاوِيَةِ إِلَى أَسَافِلِ الْجُبِّ" (أش١٤: ١٢-١٥).

"زُهَرَة": كوكب منير وهو الكوكب الذي يظهر في الصباح وهو ألمع الأجرام السماوية في ذلك الوقت، ويسمونه "فينوس Venus" أو "لوسيفر" باللاتينية أو "لوسيفوروس". ويبدو أن الوحي قد أطلق عليه هذا اللقب إشارة إلى أنه كان أسمى المخلوقات في السماء في القوة والمجد وأنه كان الأول بين الكاروبيم المظللين، مقدسًا وبلا دنس. لقد وقف في حضرة الخالق العظيم، وكانت أشعة المجد الدائمة التي تغمر الله

السرمدي مستقرة عليه. وقد وصفه الوحي الإلهي في سفر حزقيال وصفًا رائعًا مبينًا كيف تفنن الخالق في إبداع صورته الجميلة. وفي رثاء على الحال التي أوصل ذاته بإرداته إليها يقول الوحي: "يَا ابْنَ آدَمَ، **ارْفَعْ مَرْثَاةً**.. وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: أَنْتَ خَاتِمُ الْكَمَالِ، **مَلآنٌ حِكْمَةً** وَكَامِلُ الْجَمَالِ. كُنْتَ فِي عَدْنٍ جَنَّةِ اللَّهِ. كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سِتَارَتُكَ، عَقِيقٌ أَحْمَرُ وَيَاقُوتٌ أَصْفَرُ وَعَقِيقٌ أَبْيَضُ وَزَبَرْجَدٌ وَجَزْعٌ وَيَشْبٌ وَيَاقُوتٌ أَزْرَقُ وَبَهْرَمَانُ وَزُمُرُّدٌ وَذَهَبٌ. أَنْشَأُوا فِيكَ صَنْعَةَ صِيغَةِ الْفُصُوصِ وَتَرْصِيعِهَا يَوْمَ خُلِقْتَ. **أَنْتَ الْكَرُوبُ الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلِّلُ**. وَأَقَمْتُكَ. على جَبَلِ اللَّهِ الْمُقَدَّسِ كُنْتَ. بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ تَمَشَّيْتَ. أَنْتَ كَامِلٌ فِي طُرُقِكَ مِنْ يَوْمَ خُلِقْتَ **حَتَّى وُجِدَ فِيكَ إِثْمٌ. بِكَثْرَةِ تِجَارَتِكَ مَلأُوا جَوْفَكَ ظُلْمًا فَأَخْطَأْتَ**. فَأَطْرَحُكَ مِنْ جَبَلِ اللَّهِ وَأُبِيدُكَ **أَيُّهَا الْكَرُوبُ الْمُظَلِّلُ** مِنْ بَيْنِ حِجَارَةِ النَّارِ. **قَدِ ارْتَفَعَ قَلْبُكَ لِبَهْجَتِكَ**. أَفْسَدْتَ حِكْمَتَكَ لأَجْلِ بَهَائِكَ. سَأَطْرَحُكَ إِلَى الأَرْضِ وَأَجْعَلُكَ أَمَامَ الْمُلُوكِ لِيَنْظُرُوا إِلَيْكَ. **قَدْ نَجَّسْتَ مَقَادِسَكَ بِكَثْرَةِ آثَامِكَ** بِظُلْمِ تِجَارَتِكَ، فَأُخْرِجُ نَارًا مِنْ وَسَطِكَ فَتَأْكُلُكَ، وَأُصَيِّرُكَ رَمَادًا على الأَرْضِ أَمَامَ عَيْنَيْ كُلِّ مَنْ يَرَاكَ. فَيَتَحَيَّرُ مِنْكَ جَمِيعُ

الَّذِينَ يَعْرِفُونَكَ بَيْنَ الشُّعُوبِ **وَتَكُونُ أَهْوَالاً** وَلاَ تُوجَدُ بَعْدُ **إِلَى الأَبَدِ**" (حز٢٨: ١٢-١٩).

ويتضح أن لوسيفر كان من طغمة الكاروبيم الخادمة لعرش الله الممتلئة معرفة "مَلآنٌ حِكْمَةً"، ولكنه شعر بالغرور وداخلته مشاعر الخيلاء والزهو والافتخار "قَدِ ارْتَفَعَ قَلْبُكَ لِبَهْجَتِكَ". وبدلاً من أن يمجد الله ويشكره لسبب المجد الذي خلعه عليه، والإمكانيات الهائلة الممنوحة له، فإنه ابتدأ يشعر بالرغبة في أن يصير إلهًا منفصلاً عن الله "أَصِيرُ مِثْلَ الْعلى" (إش ١٤: ١٤). ومع أن مجد هذا الملاك القوي كان مستمدًا من الله فإنه بدأ يعتبر هذا المجد خاصًا بذاته. وبدلاً من أن يسعى لجعل الله أسمى كائن في عواطف كل الخلائق، فقد حاول الظفر بخدمتهم وولائهم له هو، بل كان يطمع في الحصول على المجد الذي أعطاه الآب السرمدي لابنه الوحيد منذ الأزل إذ أعطاه بالميلاد الأزلي نفس جوهره وطبيعته. وبالرغم من كل محاولات النعمة الإلهية في منع لوسيفر من ضلاله ومعصيته، إلا أنه ترك مسكنه ورياسته في حضرة الله المحب وبهذا سقط من النعمة واستحق الهلاك.

طول أناة الله

إن الله في رحمته العظيمة كما هو المعهود في صفاته الإلهية، صبر على "لوسيفر" طويلاً. لم يكن للسماء من قبل، عهد بهذه الروح، روح التذمر والنفور التي ظهرت كعنصر جديد غريب وغامض يصعب تعليله.

إن الخالق الرحيم، في إشفاقه العظيم على لوسيفر وتابعيه، كان يعمل جاهدًا للحيلولة دون ترديهم في هوة الهلاك التي أوشكوا على التردي فيها بسبب عصيانهم، ولكنهم أساءوا تفسير تلك الرحمة. فقد أشار "لوسيفوروس" إلى إمهال الله وطول أناته كبرهان على سموه هو ودلالة على أن ملك الكون سيذعن لشروطه. فبكل إصرار دافع عن مسلكه المتعالي وهكذا ألقى بنفسه في غمار تلك الحرب مع خالقه. فكأن "لوسيفر" حامل النور والمغمور بمجد الله والملازم لعرشه أصبح بعصيانه، **شيطانًا**[٣] أو **خصمًا** – خصم الله

[٣] شيطان: مأخوذة من الكلمة العبرية שטן (شطن) ومنها الكلمة الإنجليزية Satan وهي كلمة عبرية معناها "خصم" أو "مقاوم" أو "ضد" فتكون كلمة "شطن إيل" أو "سطانائيل" العبرية معناها "خصم الله" أو

والخلائق المقدسة، ومهلك أولئك الذين أناطت السماء به أمر إنارتهم.

وحتى بعدما طُرح الشيطان من السماء فإن الحكمة الإلهية غير المحدودة لم تسمح بهلاكه مباشرة. وحيث أن خدمة المحبة وحدها هي التي يمكن أن يقبلها الله فإن ولاء خلائقه له ينبغي أن يبنى على الاقتناع بعدله وإحسانه. وإن ساكني السماء والكون إذ لم يكونوا مهيئين لإدراك طبيعة الخطية أو نتائجها، لم يكن يمكنهم أن يروا عدالة الله في إهلاك الشيطان، فلو هلك فجأة لكان بعض الخلائق يعبدون الله مدفوعين بدافع الرهبة والخوف لا بدافع المحبة، وما كان ممكنًا ملاشاة تأثير ذلك المخادع تمامًا، ولا كان من الممكن استئصال شأفة روح التمرد. فلأجل خير الخليقة كلها لابد أن يُترك ليَكشِف تمامًا عن مقاصده، حتى تظهر اتهاماته التي يوجهها إلى الله على حقيقتها أمام عيون كل خلائقه، **ولكي يرتفع عدل الله ورحمته، ولأجل ثبات مقاصده فوق كل**

"مقاوم الله" أو "ضد الله". ويسمى فى اليونانية "ديابولوس – “διαβολος"
ومعناها "مشتكى زورًا" أو "ثالب" ونقلت إلى العربية "إبليس".

الشبهات والشكوك. وهنا تظهر حكمة الله في تدبير الخلاص للبشر قبل الأزمنة الأزلية (انظر ٢تي١: ٩-١٠).

صار تمرد الشيطان درسًا وعبرة للكون مدى الدهور اللاحقة، وشهادة دائمة على طبيعة الخطية ونتائجها المرعبة. وإن توطيد حكم الشيطان وتأثيره في الناس والملائكة يرينا ثمار طرحنا جانبًا الشركة مع الله عنا. ذلك يشهد بأن وجود الشركة مع الله مرتبط بخير الخلائق التي خلقها.

وهكذا نرى أن تاريخ تجربة ذلك العصيان الرهيب كان الحصن الدائم لحماية الخلائق المقدسة، حتى لا ينخدعوا فيما يختص بطبيعة التعدي، ولحفظهم من ارتكاب الخطية ومكابدة قصاصها.

إن الذي يدبر الخليقة كلها هو الذي يرى النهاية من البداية، الذي كل أسرار الماضي والمستقبل مكشوفة أمامه، والذي يرى، خلف الويل والظلام والخراب الذي أحدثته الخطية، إتمام مقاصده التي هي مقاصد المحبة والبركة. ومع أن "السحاب والضباب حوله" فإن "الْعَدْلُ وَالْحَقُّ قَاعِدَةُ كُرْسِيِّهِ" (مز٩٧: ٢). وهذا ما سيفهمه يومًا ما سكان هذا الكون

"هُوَ... الكَامِلُ صَنِيعُهُ. إِنَّ جَمِيعَ سُبُلِهِ عَدْلٌ. إِلهُ أَمَانَةٍ لا جَوْرَ فِيهِ. صِدِّيقٌ وَعَادِلٌ هُوَ" (تث٣٢: ٤).

قد يسأل سائل : **لماذا خلق الله لوسيفر** وهو يعلم بمعصيته قبل أن يخلقه؟

ونجيب عن هذا فنقول مبدئيًا أنه لا يحق لنا أن نعترض على تدابير الله غير المفحوصة لأن "جَمِيعَ سُبُلِهِ عَدْلٌ" (تث٣٢: ٤). ولكننا نحاول أن نفهم على قدر المستطاع أحكام الله وتدابيره الصالحة. ويتضح لنا ما يلي:-

أولاً: إن سَبْق معرفة الله لا يلغي حرية إرادة الكائنات التي خلقها...

ثانيًا: حرية الإرادة للكائنات العاقلة هي صفة لازمة، لتُقَدِّم خدمة المحبة الطوعية لله بما يتناسب مع كمالاته الإلهية. وإمكانية السقوط هي نتيجة طبيعية لحرية الإرادة.

ثالثًا: لا يمكن إلغاء الخليقة كلها خوفًا من هلاك جزء منها، لأن هذا يعني حرمان القديسين من الوجود بسبب خطيئة الأشرار! وكأن الشر قد انتصر على الخير ومنعه من أن ينتشر.

رابعًا: أن وجود الخليقة وفي الصورة الحسنة التي خلقها الله فيها يتناسب تمامًا مع المقاصد الإلهية كما سبق أن أوضحنا.

لقد اختار الشيطان طريق العصيان والتمرد على الله بإرادته ولا يستطيع أحد أو يجسر أن يلوم الله لأنه خلقه حرًا مثل باقي الكائنات العاقلة.

رئيس الملائكة الجليل ميخائيل

[بالعبرية: מיכאל مي كَ ئيل]

عبارة מיכאל (ميكائيل) معناها "من كالله" أو "من مثل إلهنا". وقد أطلق هذا الاسم على رئيس الملائكة الذي وقف في وجه لوسيفر المتمرد على الله. إنها بمثابة بوق التجمع جوابًا على أول محاولة لاستعلاء الخليقة ورغبتها في مساواة نفسها بالله والتشامخ أمام الله "من مثل إلهنا".

يقول القديس يوحنا الرائي "وَحَدَثَتْ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ حَارَبُوا التِّنِّينَ. وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ. وَلَمْ يَقْوُوا، فَلَمْ يُوجَدْ مَكَانُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السَّمَاءِ. فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ، الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ، الَّذِي يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ، وَطُرِحَتْ مَعَهُ مَلاَئِكَتُهُ" (رؤ١٢: ٧-٩).

الباب الثاني

خلق الأرض والإنسان

لقد أبدع الخالق العظيم في خلق العالم المنظور، وكان المنظر كله يفوق في جماله كل ما يمكن أن تخرجه يد أعظم فنان. ولقد سُرّ الجند السماويون من هذه المناظر، وفرحوا بأعمال الله العجيبة.

وبعد ما ظهرت الأرض في الوجود بما امتلأت به من حيوان ونبات، ظهر على مسرح الحياة **الإنسان الذي هو تاج كل العالم المنظور** والذي لأجله أُعدّت الأرض والمخلوقات الجميلة. كان الإنسان هو انعكاس صورة الله على المادة، والكائن الوحيد على الأرض الذي استطاع أن يعرف الله ويعبده في محبة. لهذا استحق أن يكون وكيلاً لله ومتسلطًا على كل الأرض وما عليها "وَقَالَ اللهُ: نَعْمَلُ الإِنْسَانَ **على صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا** فَيَتَسَلَّطُونَ على.. كُلِّ الأَرْضِ... فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ على صُورَتِهِ... **ذَكَرًا وَأُنْثَي خَلَقَهُمْ**" (تك١: ٢٦، ٢٧).

أقام الله آدم نائبًا عنه في التسلط على الخلائق الدنيا. إنها لا تستطيع أن تدرك الأمور الإلهية ولا أن تعترف بها، ومع

ذلك فقد كان في مقدورها أن تتجاوب مع الإنسان وتخدمه. يقول المرنم "تُسَلِّطُهُ على أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ... بهائم البر وأيضاً طُيُورَ السَّمَاءِ وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ" (مز٨: ٦-٨).

كان الإنسان حينما خلقه الله على صورته في وفاق تام مع الله، وكان عقله قادرًا على إدراك الأمور الروحية، وكانت عواطفه طاهرة، وأشواقه وانفعالاته النفسية تحت سيطرة العقل، **وكان مقدسًا وسعيدًا لكونه يحمل صورة الله** كقديس يشبه الله في المعرفة والبر وقداسة الحق. **وكان يقدِّم لله طاعة كاملة.**

يقول الوحي الإلهي في سفر التكوين "وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ **تُرَابًا** مِنَ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ **نَفْسًا حَيَّةً**" (تك٢: ٧). دعا الرب الإنسان الأول "**أدم אדם**" نسبة إلى **التراب الأحمر** الذي جُبل منه. هذا التراب لازال موجودًا بالعراق وتتميز به أرضها. وهذا الاسم مأخوذ من كلمة "**آدام** אדם" العبرية ومعناها "أحمر". لهذا دعي نسل عيسو بشعب "أدوم" لأن عيسو كان ذا شعر أحمر "فَخَرَجَ الأَوَّلُ **أَحْمَرَ** كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ فَدَعُوا اسْمَهُ عِيسُوَ. فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: أَطْعِمْنِي

مِنْ هَذَا **الأَحْمَرِ** אדם (يقصد العدس المطبوخ) لأَنِّي قَدْ أَعْيَيْتُ. لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهُ **أَدُومَ** אדום" (تك٢٥: ٢٥-٣٠).

ونظرًا لأن الإنسان قد نال نسمة الحياة من الله المحب، فإنه قد صار مرتبطًا في حياته بالله. ولم يشأ الله أن يخلق روح الإنسان أولاً مستقلة عن الجسد، وذلك ليؤكد وحدة الطبيعة البشرية جسدًا وروحًا..

خلق المرأة

أحضر الرب الإله كل حيوانات البرية وكل طيور السماء إلى آدم ليرى ماذا يدعوها "وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا... وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ" (تك٢: ١٩-٢٠).

لم يشأ الرب أن يخلق المرأة في نفس الوقت مع آدم ولكنه تركه وحيدًا لبعض الوقت حتى يشعر باحتياجه إليها فلا يحس أن الله قد فرض وجودها عليه. تركه حتى يطلبها بنفسه فهكذا يحترم الله حرية إرادة الإنسان ويكرمه. وحينما اشتاق آدم إلى من يؤنس وحدته من نفس طبيعته البشرية، إذ لم تُشبع الحيوانات فيه هذه الرغبة "فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ سُبَاتًا

على آدَمَ فَنَامَ فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَي الرَّبُّ الإِلَهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ" (تك ٢: ٢١-٢٢). ربما كانت هذه هي أول عملية جراحية في تاريخ البشرية قام بها الله بعد أن أوقع سباتًا يشبه حالة التخدير على آدم لكي يمنع عنه الألم، ولكنه منحه حالة من الرؤيا لكي يشاهد الله وهو يبني حواء من جنبه. وقد أراد الله بهذا أن يؤكد وحدة الجنس البشري. إذ يشعر الرجل أن المرأة المأخوذة من جنبه هي جزء من جسده أي أنهما جسد واحد، وعائلة واحدة يجمع بينهما الحب الكامل حسب الوصية "يَجِبُ على الرِّجَالِ أَنْ يُحِبُّوا نِسَاءَهُمْ كَأَجْسَادِهِم" (أف٥: ٢٨).

لم يشأ الله أن يخلق المرأة كآدم من التراب لئلا يشعر بأنها كائن غريب من جنس آخر منفصل عنه. ولكيلا يشعر أنها قد جاءت لتزاحمه وجوده وكيانه ومركزه. بل أخذها منه لكي يكون هو بمثابة الأصل لها. لهذا فقد فرح برؤيتها حينما أحضرها الإله المحب إليه. لقد أخذها من يد الله كهدية ممتازة. وقد رآها جميلة مشرقة متوشحة بثوب من النور والبهاء والقداسة على صورة الله مثله تمامًا "فَقَالَ آدَمُ: هَذِهِ

الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَي امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ. لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ" (تك٢: ٢٣-٢٥).

لقد رأى آدم في خلق المرأة دليلاً جديدًا على محبة الله فصارت هي له سبب مسرة فائقة. ولم يكن هناك حدًا لسعادتهما معًا حينما يلتقي الله بهما في الفردوس وسط تسابيح الملائكة وأناشيدهم الشجية. كانت لذة فائقة تسري في كيانهما معًا حينما يحدث هذا اللقاء فتذوب نفوسهم حبًا وعذوبة وهي تلهج بشكر لا ينقطع في خشوع وإجلال لشخص القدير. لقد صنع الرب بنفسه أول حفل زفاف "وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ وَأَخْضِعُوهَا وَتَسَلَّطُوا على سَمَكِ الْبَحْرِ وَعلى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعلى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ على الأَرْضِ" (تك١: ٢٨-٢٩).

المسيح والكنيسة

لقد شبَّه الكتاب المقدس اتحاد الرجل والمرأة باتحاد المسيح والكنيسة. "وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. هَذَا السِّرُّ عَظِيمٌ،

وَلَكِنَّنِي أَنَا أَقُولُ مِنْ نَحْوِ **الْمَسِيحِ وَالْكَنِيسَةِ**" (أف٥: ٣١-٣٢). وكأن الله قد رسم في خلقه للجنس البشري صورة الكنيسة التي خرجت من جنب المسيح المطعون، كما خرجت المرأة من جنب آدم "لَكِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ **جَنْبَهُ** بِحَرْبَةٍ وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ **دَمٌ وَمَاءٌ**. والَّذِي عَايَنَ شَهِدَ وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ" (يو١٩: ٣٤-٣٥)، "فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذَلِكَ فِيهِمَا" (عب٢: ١٤) ليؤكد وحدة المسيح والكنيسة أنه هو الرأس والكنيسة هي جسده.

حرية إرادة الإنسان

إن أبوينا الأولين مع كونهما قد خُلقا في حالة الطهارة والقداسة إلا أنهما لم يجردا من إمكانية الخطأ. لقد خلقهما الله ولهما إرادة حرة، قادرين على تقدير حكمة الخالق وإحسانه وعدالة مطالبه، ولهما ملء الحرية في أن يطيعاه أو يمتنعا عن الطاعة. وكانت شجرة معرفة الخير والشر هي التجسيم الطبيعي لإمكانية الخروج عن هذه الطاعة بانفصال المشيئة عن الله. كما أن شجرة الحياة في وسط فردوس الله، كانت هي التجسيم الطبيعي لحياة الشركة مع الله وجماعة القديسين.

كان بإمكان الله أن يخلق الإنسان في حالة من العجز عن عصيان أوامره، وكان بإمكانه أن يكف يد آدم عن أن تمس الثمرة المحرمة، ولكن في هذه الحالة ما كان الإنسان يعتبر كائنًا أدبيًا حر الإرادة بل مجرد آلة متحركة، فبدون حرية الاختيار لا تعتبر طاعته طوعية بل قسرية، وليس لأخلاقه مجال لتنمو. إن هذا السبيل يتعارض وتدبير الله في معاملته للكائنات العاقلة. وما كان هذا خليقًا بالإنسان ككائن عاقل، بل كان كفيلاً بأن يؤيد اتهام الشيطان لله بأنه مستبد ومتعسف في حكمه.

حياة الشركة مع الله

آدم وشريكته لم يكونا فقط طفلين يتمتعان برعاية الله أبيهما، بل كانا أيضًا تلميذين يتلقيان التعليم من الخالق الكلي الحكمة. كانت الملائكة تزورهما، كما سمح لهما بأن يكونا في شركة مع جابلهما دون أن يكون هنالك حجاب يفصله عنهما. وأعطيت لهما شركة الحياة الأبدية والخلود بأكلهما من شجرة الحياة، فكانا يمتلآن حيوية ونشاطًا بفضل أكلهما من هذه الشجرة. وكانت قواهما العقلية أقل قليلاً مما

للملائكة. وإن "مُعْجِزَاتِ الْكَامِلِ الْمَعَارِفِ" (أي٣٧: ١٦)، وأسرار الكون المنظور، فتحت أمامهما نبعًا لا ينضب من المعرفة والسرور. ثم أن قوانين الطبيعة وأعمالها التي ظلت موضع دراسة البشر مدة ستة آلاف سنة انفتحت وانكشفت أمام ذهنيهما بواسطة ذاك الذي هو مصور الكل وحامل الكل. كانا يتحدثان مع الأزهار والأشجار ويستخلصان منها أسرار حياتها. وقد كان آدم عارفًا بكل الخلائق الحية من لوياثان العظيم الذي يلعب في الماء إلى الهوام الصغيرة التي تطير فوق وجه الأرض، وقد دعا كل تلك الخلائق بأسمائها كما كان خبيرًا بطبيعة كل منها وعاداتها. إن مجد الله في السموات، والعوالم التي لا حصر لها في دوراتها المنتظمة وأسرار النور والصوت والنهار والليل- كل هذه كانت موضوع دراسة أبوينا الأولين. فعلى كل ورقة من أوراق أشجار الغابات وكل حجر في الجبال، وفي كل كوكب ساطع وفي الأرض والهواء والجلد، كان اسم الله مكتوبًا. وأن النظام والانسجام العجيب في الخليقة حدثاهما عن حكمة الله وقوته اللتين لا حد لهما.

التجربة والسقوط

أصيب الشيطان بذهول وحيرة وحقد شديد بسبب المجد والتألق الذي أسبغه الله على الطبيعة البشرية. إن طبيعة الملائكة تسمو عن طبيعة البشر الترابية. وهذا ما أذهل إبليس اللعين إذ وجد الإنسان الترابي يتمتع بشركة مع الله وينال المجد الذي حُرم هو منه بسبب معصيته وسقوطه. فقرر أن يدبر مكيدة لإسقاط الطبيعة البشرية وإخضاعها لسلطانه. وبهذا يشوه الصورة الجميلة التي وضعها الله في الإنسان التي هي صورته ومثاله.

واختار الشيطان الحية أحيل وأحكم جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله (انظر تك٣: ١). كانت الحية تتألق ببريق ذهبي وهي ترفرف بجناحيها حول أشجار الجنة فتثير إعجاب المرأة وتلفت نظرها. وقد انتهز الشيطان فرصة مواتية ابتعدت فيها المرأة عن آدم رجلها لتتابع الحية الجميلة، فتكلم مع المرأة قائلاً "أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ" (تك٣: ١). وهنا يجتذب الشيطان المرأة للدخول معه في حوار... ليتنا نهرب من أحاديث الشيطان فلا نعطيه فرصة للتأثير على نفوسنا. "فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ

شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ. وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا. فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: **لَنْ تَمُوتَا!** بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ" (تك٣: ٢-٥). هذا اتهام صارخ لله بالكذب والأنانية وعدم الرغبة في إشراك خليقته في معرفته الإلهية ليتسلط ويحكم ويستعبد. إنه اتهام للإله المحب بعدم المحبة وللقلب الأبوي الكبير بالأنانية والكبرياء..!! وهنا الامتحان الكبير للمرأة، أتصدِّق كل هذه الافتراءات على الله القدوس؟! ألم يقدِّم الله للإنسان كل الحب والعناية حتى أنه أعطاه صورته الإلهية وأعطاه نعمة الخلود والحياة الأبدية ممثلاً في شجرة الحياة..؟! لقد نسيت المرأة كل ذلك وصدَّقت المسكينة كلام الحية الماكرة وأفسدت ذهنها عن البساطة التي في المسيح يسوع... وهنا تغيرت نظرة المرأة "فرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ" (تك٣: ٦)... إن الحرب الروحية تبدأ من داخل قلب الإنسان والخطية لا تنال تأثيرًا على الإنسان إلا في حالة ابتعاده عن محبة الله. فالقلب

الملتهب بمحبة المسيح لا تستطيع الخطية أن تجد سبيلها إليه "لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْطِئَ" (١يو٣ :٩).

اكتمال السقوط

أخذت المرأة من ثمر شجرة معرفة الخير والشر وأكلت، وكانت الثمرة لذيذة المذاق، فلما أكلت منها أحست بانتعاش وقوة، وتخيلت –بإيحاء شيطاني– أنها قد دخلت إلى حالة وجود أسمى.

أما وقد تعدت بنفسها فقد أمست آلة في يد الشيطان للعمل على إهلاك زوجها. وفي حالة اندفاع غريب وغير طبيعي ذهبت تبحث عن رجلها ويداها مملوءتان بالثمرة المحرمة، وأخبرته بكل ما حدث.

علت وجه آدم سحابة من الحزن، وبدا عليه الذهول والذعر، ثم أجاب على كلام حواء قائلاً: لابد أن يكون هذا هو العدو الذي قد حذرنا الرب منه، وبموجب حكم الله لابد من موتها. وردًا على كلام آدم ألحت عليه أن يأكل، مرددة كلام الحية من أنهما لن يموتا. وجعلت تحاجه قائلة لابد أن يكون كلام الحية صادقًا لأنها لا تحس بأي دليل على غضب الله أو

تأثيره، بل على عكس ذلك هي متحققة من أن تأثيرًا مسرًا مبهجًا يملأ قواها بحياة جديدة ولذة فائقة – هكذا ظنّت. فبعد قليل من التردد تغلبت محبته لحواء وحرصه على إرضائها على صوت الحكمة الإلهية الناطق فيه، فأخذ من يدها وأكل كاسرًا وصية الله المحب...

بعدما تعدى آدم الوصية تخيّل، بادئ ذي بدء، أنه قد دخل إلى حالة أسمى في الوجود، ولكن سرعان ما ملأه تفكيره في الخطية رعبًا، وتركتهما المحبة والسلام اللذان كانا يتمتعان بهما، وحل عوضًا عنهما الشعور بالخطية، والخوف من المستقبل، وعري النفس. وإن رداء النور الذي كانا متسربلين به اختفى الآن. فلكي يسدا ذلك النقص حاولا أن يجدا شيئًا يستتران به، إذ لم يكونا يستطيعان مواجهة الله وملائكته القديسين وهما عريانين.

نتائج السقوط

طرب الشيطان وفرح جدًا بنجاحه، فها قد أثبت قدرته على السيطرة على الطبيعة البشرية التي خلقها الله ليظهر مجده فيها ببره وقداسته وصورته الممنوحة لها. وها قد جرب

إبليس المرأة لتشك في محبة الله وحكمته، وجعلها تتعدى شريعته وعن طريقها أسقط رجلها آدم.

ولكن الله المحب بدأ يتحرك في تدبيره لخلاص الإنسان... كان من الممكن أن تحل العقوبات الإلهية على آدم وامرأته دون أن يلتقي الله به أو يتكلم معه. ولكن الله أتى ليلتقي بالإنسان كعادته وليكشف له عواقب الخطية وبشاعتها... وليرسم أمام عينيه تدبير الخلاص.

لقد استوجب آدم على نفسه الموت ولنسله من بعده وذلك لعصيانه وصية الله وتلامس طبيعته مع الشر. إذ باع آدم نفسه للشيطان وتدنس به وأصبح مبيعًا للموت ممسَكًا منه بسبب خطيته. لقد جاء الموت كتجسيد كعاقبة البعد عن الله والانفصال عن شركته المقدسة. فالموت هو علامة الخطية الظاهرة.

وللموت جانبان

الأول: هو موت النفس بانفصالها عن الله مصدر حياتها.

الثاني: هو موت الجسد بانفصال النفس منه.

ونظرًا لسقوط النفس البشرية في قبضة الشيطان بطاعتها لإرادته، فلم يعد في قدرتها أن تمنح دوام الحياة للجسد. وحرم الجسد من الخلود إذ منعته المحبة الإلهية من أن يأكل من شجرة الحياة ويحيا إلى الأبد في خطيته "وَقَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا **عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.** وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ الإِنْسَانَ وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ" (تك٣: ٢٢-٢٤).

لقد أعلن الله محبته للبشر بسعيه في طلب الإنسان وفي عتابه لآدم حينما خالف وصيته. وقد لعن الله الحية التي استخدمها إبليس لإسقاط آدم كما لعن الأرض التي أخطأ بسبب ثمرها. ولكنه لم يلعن آدم وامرأته لمحبته لهما. فبالرغم من العقوبات التي أعطيت لهما إلا أن محبة الله كانت هي الغالبة.

لقد لاحظ الرب ارتباكهما بسبب العُري الذي أنشأته الخطية، فصنع لهما أقمصة من جلد وألبسهما. **وهنا أظهر الله تدبير**

الخلاص والفداء بالذبيحة الإلهية إذ ذبح الله حملاً وألبس جلده لآدم ليستر عري خطيته. وقد حزن آدم حينما رأى حملاً بريئًا يُذبح بسببه ولأجله وندم على ما فعل إذ عاين الدم المسفوك وعلم أنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة.

كذلك أراد الله أن يضع حدًا للمرأة لكي لا تتسلط على آدم وتتمادى في إسقاطه فجعله سيدًا لها حفظًا لكيان الأسرة البشرية "وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عليكِ" (تك٣: ١٦). ليس معني هذا أن يحاول الرجال إذلال نسائهم بل أن يقود الرجل زوجته بحكمة في طريق الله. والمرأة الفاضلة تجد كل مسرتها في خضوعها لزوجها لأن هذا نافع لخلاصها جدًا. إذ أن المرأة بطاعتها للرجل سوف تصل إلى ميناء السلام وتكون سبب بركة للجميع.

ولا شك أن الشقاء والمعاناة اللذين بُلي بهما الإنسان بعد سقوطه كانا سببًا لشعوره بالغربة في هذا العالم الحاضر "ويل لي فإن غربتي قد طالت على" (مز١٢٠). وهذا يدفعه للرغبة في **حياة أخرى أفضل** مشتاقًا إلى خلاص الله "لِخَلاَصِكَ انْتَظَرْتُ يَا رَبُّ" (تك٤٩: ١٨).

وكانت أتعاب الحبل والولادة للمرأة إشارة إلى **مخاض الكنيسة** في ولادة أبناء صالحين لله والآلام التي سيحملها الجنس البشري حتى يتحقق الخلاص من الخطيئة.

أما العداوة بين نسل الحية ونسل المرأة فكان إشارةً واضحةً إلى العداوة بين الجنس البشري والشيطان وأجناده الأشرار.

أما سحق رأس الحية فقد اختص به السيد المسيح المولود من مريم العذراء.

الباب الثالث

بداية رحلة البشرية في طريق الخلاص

فساد الطبيعة البشرية

فقدت الطبيعة البشرية نقاوتها الأولى، وبساطتها الأولى، وعرفت الخطية، واختبرتها، **ودخلت في ثنائية معرفة الخير والشر، وفي الصراع بين الجسد والروح** وهبطت إلى المستوى الجسدي أحيانًا كثيرة. أصبح من السهل أن تخطئ.

وسوف نرى فيما بعد، كيف انهارت هذه الطبيعة البشرية، وانحدرت إلى مستويات مؤسفة، وتوارثت ألوانًا من الفساد، إلى أن وصلت إلى محبة الخطية، وإلى العبودية لها، وإلى إنكار الله، والجهل به، والتجديف عليه...

وفقد آدم وحواء هيبتهما، وسلطتهما على الطبيعة، وعلى الحيوان، فتمردت عليهما الأرض، وصارت تنبت لهما شوكًا وحسكًا، وتمرد عليهما الحيوان، وقامت عداوة معه...

وظهر فساد الطبيعة البشرية أيضًا في انحلالها، في تعب الجسد وتعب النفس، وستبقى في هذا الفساد إلى يوم القيامة متى "لَبِسَ هَذَا الْفَاسِدُ عَدَمَ فَسَادٍ" (١كو١٥: ٥٤).

وكان الموت هو النتيجة الأساسية للخطية... والكل قد خضع له. مات آدم وماتت حواء، ومات كل نسلهما، وسيموت النسل الذي يولد فيما بعد. وسيظل الموت إلى أن ينتهي هذا العالم. ويقول الكتاب إن "آخِرُ عَدُوٍّ يُبْطَلُ هُوَ الْمَوْتُ" (١كو١٥: ٢٦). يحدث هذا في نهاية العالم، حينما تتغير طبيعتنا في القيامة العامة ونلبس الحياة، أو كما يقول معلمنا بولس الرسول "هَذَا الْفَاسِدَ لاَ بُدَّ أَنْ يَلْبَسَ عَدَمَ فَسَادٍ وَهذَا الْمَائِتَ يَلْبَسُ عَدَمَ مَوْتٍ" (١كو١٥: ٥٣).

ولكن لم يكن ممكنًا أن يموت أبوانا في التو واللحظة... وإلا تكون البشرية كلها قد انتهت وزالت، **ويكون الشيطان قد انتصر في المعركة انتصارًا ساحقًا، ولا يكون هناك خلاص،** الخلاص الذي أعده الرب لآدم وبنيه... لذلك تأجل هذا الموت إلى حين، ريثما تلد حواء بنين وتربيهم. لأنه فيما بعد سيأتي من نسل المرأة من يسحق رأس الحية، ويطلب ويخلص ما قد هلك.

ومع تأجيل هذا الموت الجسدي كان هناك الموت الروحي والأدبي الذي تم في التو واللحظة... على أنه من جهة هذين الموتين، ظل الله يعمل عملية إقامة من الأموات بالنسبة إلى

آدم وبنيه، لكي يرجعهم إلى رتبتهم الأولى ولكي تتم المصالحة بينهم وبين الله. **ولكن الأمر كان يتوقف على مدى الاستجابة الفردية لعمل النعمة في كل إنسان على حدة.** أما الموت الأبدي وهو أخطر ما في حكم الموت فهو ما يخلص منه الإنسان المؤمن بفداء المسيح الذي مات عنّا...

النسل الموعود به

أصبح من الواضح أن الحية لم تَصْدُقْ في خداعها. فبدلاً من ارتقاء الإنسان ليصير مثل الله.. انحدر إلى أسفل. وكان انحدار آدم وامرأته هو "مُبْتَدَأُ الأَوْجَاعِ".

ولم يعد هناك من حل، سوى انتظار الخلاص الذي يأتي به المسيح، حيث ينضح علينا بزوفاه فنطهر، ويغسلنا فنبيض أكثر من الثلج، ويمنحنا بهجة خلاصه (انظر مز ٥٠).

وفي غمرة الاشتياق لنوال وعد الخلاص عرف آدم امرأته فحبلت وولدت ابنًا ذكرًا ودعت اسمه قايين إذ قالت "اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ" (تك٤: ١). وقد ظنت بذلك أنها قد اقتنت مخلصًا يحقق الوعد الإلهي. ولكن للأسف ظهرت

على قايين بوادر الشر والكبرياء منذ صبوته. فعادت وولدت أخاه هابيل وكان هابيل بارًا فوضعت فيه آمالها للخلاص.

كان في قصد الله أن يهيئ البشرية أولاً لقبول فكرة التجسد الإلهي، والفداء بواسطة الذبيحة الإلهية. ولم يكن ممكنًا للبشرية احتمال وقبول هذا الأمر إلا بعد آلاف السنين، حين يستنفذ الله أولاً كل الوسائل الأخرى الممكنة ويبدو واضحًا لجميع الأجيال السابقة واللاحقة للمسيح أنه لا خلاص بدون التجسد والصليب وما يتبعهما.

كان هناك اختلاف بيّن بين صفات كل من قايين وهابيل ابني آدم، فروح هابيل كانت روح الإخلاص والوفاء لله. لقد رأى العدل والرحمة في معاملة الخالق للجنس البشري الساقط، وبكل شكرٍ قبل رجاء الفداء. أما قايين فقد راعى في نفسه أحاسيس التمرد، وتذمر على الله لكونه قد لعن الأرض بسبب خطية آدم، وسمح لعقله أن يسير في نفس الاتجاه الذي أدى إلى سقوط الشيطان، أي الرغبة في تعظيم النفس والشك في عدالة الله وسلطانه.

"بِالإِيمَانِ قَدَّمَ هَابِيلُ لِلَّهِ ذَبِيحَةً أَفْضَلَ مِنْ قَايِينَ" (عب١١: ٤). لقد فهم هابيل مبدأ الفداء العظيم، رأى نفسه خاطئًا

ورأى الخطية التي قصاصها الموت حائلاً بينه وبين الشركة مع الله، فأتي بذبيحته، وبذلك اعترف بحقوق العدل الإلهي. **وعن طريق الدم المسفوك جعل نظره على الذبيحة العتيدة–** أي المسيح المائت على صليب الجلجثة، **وإذ اتكل على الكفارة التي ستقدَّم شُهد له بأنه بار**، وقبل الله قربانه. إن الإيمان بالله هو في جوهره الإيمان بأبوته وقداسته الكاملة وهو ما يظهر جليًا في ذبيحة الصليب. وأي إيمان بدون ذبيحة المسيح يعتبر مرفوضًا.

آمن هابيل بالذبيحة ونال تبريرًا على الرجاء وصار هو نفسه رمزًا للسيد المسيح. وحينما قتله قايين أخوه كان دمه يصرخ إلى الله. ولأول مرة نسمع **أن الدم من الممكن أن يصرخ وأن يتكلم وبالتالي أن يشفع** في كل من يقبل شفاعةً...

قايين وهابيل

"قَدْ أَتَيْتُمْ إِلَى جبَلِ صِهْيَوْنَ، وَإِلَى مَدِينَةِ اللهِ الْحَيِّ: أُورُشَلِيمَ السَّمَاوِيَّةِ، وَإِلَى رَبَوَاتٍ هُمْ مَحْفِلُ مَلاَئِكَةٍ، وَكَنِيسَةِ أَبْكَارٍ مَكْتُوبِينَ فِي السَّمَاوَاتِ، وَإِلَى اللهِ دَيَّانِ الْجَمِيعِ، وَإِلَى أَرْوَاحِ

أَبْرَارٍ مُكَمَّلِينَ، وَإِلَى وَسِيطِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ: يَسُوعَ، **وَإِلَى دَمِ رَشٍّ يَتَكَلَّمُ أَفْضَلَ مِنْ هَابِيلَ**" (عب١٢: ٢٢-٢٤).

قال الله لقايين بعد أن قتل أخاه "مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ" (تك٤: ١٠). لأول مرة نسمع أن الدم يصرخ ويتكلم ويطالب. وكان هابيل البار رمزًا ليسوع المسيح البار وسيط العهد الجديد الذي تكلم دمه المرشوش ليشفع في المذنبين. فالدم يحمل للجسد الحياة، وقد وهبنا السيد المسيح حياته على الصليب، ودافع عن البشرية الخاطئة قائلاً "يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ" (لو٢٣: ٣٤). وليست هناك خطية بلا مغفرة إلا التي بلا توبة؛ فالذي يخطئ عن ضعف أو عن عدم معرفة من الممكن أن يتوب. أما الذي يخطئ بسبب كراهيته للحق وبغضه لله وتجديفه على الروح القدس (مثل الشيطان) فلن يجد طريقًا إلى التوبة بل هو يرفضها بكل قوته.

♱ مشكلة هابيل كانت، أنه إنسان مقبول من الرب.!!

قايين وجد أن قربانه غير مقبول كأخيه، فدخله الحسد. وكان هذا الحسد بدء الشر الذي دخل قلبه، وانتهى به إلى قتل

أخيه. وربما كان الحسد أيضًا هو الذي دفع الشيطان إلى إسقاط آدم وحواء، إذ رأى أن الله قد أحبهما وباركهما وأعطاهما سلطانًا ومركزًا، وقد خلقهما على صورته ومثاله، فحسدهما الشيطان، ودبر خطته لإسقاطهما. ولذلك نقول في القداس الإلهي {الموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس، هدمته...}

مساكين هم الأشخاص الذين يسيرون في طريق الرب، لأن الشر يتضايق من نجاحهم ومحبة الله لهم، فيدبر لهم ما يشاء أن يدبِّر.. إنه حسد الشياطين وأعوانهم...

سواء في ذلك آدم، الذي حسده الشيطان في الجنة.. أو هابيل البار، الذي قدَّم لله قربانًا أفضل من أخيه قايين، فحسده أخوه وقتله.

أو داود إذ مسحه صموئيل ملكًا، ونجح في حياته، فتضايق إخوته، وتضايق أيضًا شاول الملك، ودبَّر لقتله...

أو يوسف الصدِّيق، إذ كان محبوبًا عند أبويه، فحسده إخوته، وباعوه كعبد...

أو السيد المسيح نفسه، الذي كان يجول يصنع خيرًا: فإذ رأى الكهنة أن الكل قد ساروا وراءه (أنظر يو ١٢: ١٩)

حسدوه، وجمعوا عليه شهود زورٍ، واتهموه باطلاً وقدموه للصلب.

وهكذا كانت مشكلة هابيل، أن قربانه كان مقبولاً أمام الله، فتضايق أخوه ويقول الكتاب في ذلك "فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ" (تك٤: ٥).

إذن قايين لم يكن يسعى إلى محبة الله، وإلى إرضاء قلب الله، إنما كان يبحث عن كرامته الشخصية ورضاه عن نفسه وعن مركزه.

لو كان يبحث عن محبة الله، لكان في حالة رفض الله لقربانه، أن يفتش كيف يرضي الرب... ولعل هذا ما قصده الرب بقوله له "إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلاَ رَفْعٌ" (تك٤: ٧)...

كانت أمامه فرصة لتحسين موقفه، ولكنه لم يستغلها، ولم يستفد من توجيه الرب، الذي تنازل وكلَّمه..

لقد قرر أن يتخلص من أخيه، من هذا البار الذي كلما يراه تصغر نفسه ويشعر أنه أقل... ورأى أنه إذا تخلّص منه، لا يبقى أمامه شخص أفضل، يثير حسده.

العجيب أن قايين، بعد أن كلّمه الله، لم يستجب لكلمة الله، ولم يفتح لها قلبه، بل فتحه للخطية...

إنه يذكرنا بيهوذا الإسخريوطي، الذي لم يستفد من عشرته للسيد المسيح، ولا من أكله معه، وغمسه لقمته في نفس صحفته، ولم يستفد من كلام الرب وتحذيراته وقام بعد العشاء ليخون سيده ويسلِّمه!

وسائط النعمة يستفيد منها من يشاء، ويرفضها من يشاء. إنها لا تُرغم الإنسان على عمل الخير...

لقد تقابل قايين مع الرب، وللأسف لم يستفد. سعى الرب إليه، وأراه الطريق، ولكنه رفض أن يسير في طريق الرب، ولم يستجب إلا لفكر قلبه الرديء.

ربما أثناء حديث الرب معه، كان منشغلاً بالغيرة التي في قلبه، وكان الحسد يسد أذنيه، وكان الانفعال الداخلي أعلى صوتًا في قلبه، وكانت ذاته حائلاً يحجب حكمة الوصية والنصيحة...

☩ "**وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ**" (تك٤: ٨). ترى ماذا قال له؟

أتراه قال له "هيا بنا إلى الحقل، نقضي وقتًا بعيدًا عن الأسرة، معًا.. بعيدًا عن ملاحظة الأبوين... على أية الحالات، **لم يكن هابيل ينتظر خيانة من أخيه قايين**. إنه شقيقه، يمكنه أن ينام إلى جواره ويغمض عينيه، دون أن

يخشى شرًا، في ثقة بهذه الأخوّة... لو كان في قلبه أدنى شك من جهته، لاحترس منه. لكن حينما يأتي الشر ممن هم فوق مستوى الشك، حينئذٍ تكون المأساة أعمق وأكثر تأثيرًا في النفس...

يذكّرنا هذا أيضًا بيهوذا الإسخريوطي الذي باع سيده وأسلمه إلى صالبيه... "والَّذِي أَسْلَمَهُ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلاً: الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ" (مت٢٦: ٤٨).. عن هذا تنبأ داود النبي قائلاً "كلامه ألين من الدهن وهو نصال" (مز٥٤ (٥٥): ٢١)... **أي بكلام المحبة اللين "مثل الدهن" وجِّهت إلى السيد المسيح طعنة الخيانة المريرة!.**

"قَايِينَ قَامَ على هَابِيلَ أَخِيهِ وقَتَلَهُ" (تك٤: ٨). وهكذا تطورت به الخطية من سيء إلى أسوأ وهو مستسلم لها. تطور من غيرة إلى حسد إلى غيظ إلى حقد إلى فكر الشر، إلى تدبيره وتنفيذه. "**كَمَا كَانَ قَايِينُ مِنَ الشِّرِّيرِ وَذَبَحَ أَخَاهُ. ولِمَاذَا ذَبَحَهُ؟ لأَنَّ أَعْمَالَهُ كَانَتْ شرِّيرَةً، وَأَعْمَالَ أَخِيهِ بَارَّةٌ" (١يو٣: ١٢).**

قايين أمام محكمة العدل الإلـهي

بعد أن أطاع قايين روح إبليس وقتل أخاه البار هابيل، في الحال جاء صوت الله ليحاكم قايين على جريمته "فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟" فَقَالَ: لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي" (تك٤: ٩). لقد تمادى قايين في خطيته حتى فقد الإحساس بوجود الله المستمر وبعظمته وعلمه بكل شيء، ولذلك عمد إلى الكذب ليستر جريمته. فعاد الله يقول لقايين "مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ" (تك٤: ١٠). لقد أعطى الله لقايين فرصة يعترف فيها بخطيته، وكان لديه وقت للتأمل والتذكر. ولكنه ظلّ سادرًا[٤] في تمرده، ولهذا فالرب لم يرجئ الحكم عليه. فذلك الصوت الذي سُمع يتوسل إليه وينذره، نسمعه الآن ينطق بهذا القول المرعب "فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لاَ تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا. تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الأَرْضِ" (تك٤: ١١-١٢). وبالرغم من كون قايين استحق الموت لأجل جرائمه فقد أبقى الخالق على حياته وأعطاه فرصة للتوبة. ولكن قايين عاش ليقسي قلبه، وليكون

---

[٤] مستمرًا ولم يثنه شيء.

في طليعة قوم خطاة متهورين مرذولين. وهذا المتمرد الذي أسلم قياده للشيطان أصبح مجرِّبًا لآخرين غيره، فكان مثاله وتأثيره مفسدًا لأخلاقهم وأخلاق ذويهم بحيث فسدت الأرض وامتلأت ظلمًا، الأمر الذي استوجب إهلاكها. إن تاريخ قايين ونسله، ذلك التاريخ المظلم، كان تفسيرًا لما يمكن أن يحدث لو سُمح للخاطئ أن يحيا إلى الأبد حاملاً في قلبه عصيانه وتمرده على الله.

موقف سكان السماء

كان سكان السماء من الملائكة القديسين يتتبعون بأعظم اهتمام سير الحوادث الجارية على الأرض. وفي الحالة التي كان العالم عليها قبل الطوفان رأوا مثالاً لنتائج حكم لوسيفر (إبليس) الذي حاول أن يفرضه في السماء برفض سلطان المسيح. ورأوا في أولئك الخطاة المتعظمين المستكبرين الذين عاشوا قبل الطوفان نوع الرعايا الذين ملك عليهم الشيطان. كان تصوّر قلوب الناس شريرًا في كل يوم (انظر تك٦: ٥). لم يفتحوا قلوبهم لعمل الله في أي يوم بل هامت قلوبهم بمحبة الشر والخطية. فكل عاطفة وكل باعث وكل

تصوّر كان في حالة حرب ونضال ضد مبادئ الله، مبادئ الطهارة والسلام والمحبة. وكان ذلك مثالاً للانحطاط المريع الناجم عن سياسة الشيطان في أن يلاشي من قلوب الناس مشاعر الولاء لله، وضوابط شريعته المقدسة.

تدبير إعلان عدل الله

من خلال الحقائق التي تتكشف في سير الحرب العظمى الروحية سيعلن الله مبادئ حكمه وسياسته التي قد زيَّفها الشيطان وكل الذين له. وفي النهاية سيظفر الله بإستحسان الكون كله إذ يتقدم تدبيره خطوة بعد خطوة في طريقه إلى الكمال التام. وهكذا سيكون الحال حين يستأصل شأفة العصيان نهائيًا. سيرى أن كل من تركوا شريعة الله قد انحازوا إلى جانب الشيطان وصاروا محاربين للمسيح. وحين يدان رئيس هذا العالم، ويشاطره في المصير نفسه كل من انضموا إليه، فكل سكان الكون الذين سيكونون شهودًا على ذلك الحكم سيقولون "عَادِلَةٌ وَحَقٌّ هِيَ طُرُقُكَ يَا مَلِكَ الْقِدِّيسِينَ" (رؤ١٥: ٣).

نسل الخلاص ونسل اللعنة

أعطى لآدم ابن آخر ليكون وارثًا للوعد الإلهي بالخلاص، وارثًا للبكورية الروحية. إن معنى اسم شيث الذي أطلق على هذا الابن هو "معين" أو "عوض" لأن أمه قالت "اللهَ قَدْ وَضَعَ لِي نَسْلاً آخَرَ عِوَضًا عَنْ هَابِيلَ" (تك٤: ٢٥).

قيل عن آدم حين خُلق "على صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ" (تك١: ٢٧) أما بعد السقوط فقد قيل عن بني الإنسان "وَوَلَدَ (آدم) وَلَدًا على شَبَهِهِ كَصُورَتِهِ" (تك٥: ٣). فمع أن آدم خلق بلا خطية، على صورة الله، فإن **شيث**، **ورث طبيعة أبويه الساقطة**، ولكنه حصل على معرفة الفادي والتعليم في البر.

"وَلِشِيثَ أَيْضًا وُلِدَ ابْنٌ فَدَعَا اسْمَهُ أَنُوشَ. حِينَئِذٍ ابْتُدِئَ أَنْ يُدْعَي بِاسْمِ الرَّبِّ" (تك٤: ٢٦). لقد كان الأمناء يعبدون الرب من قبل، ولكن إذ تكاثر الناس ظهر الفرق بين الفريقين بأكثر وضوح وأصبح من الضروري أن يكون هناك "كارزًا بالبر" من عبيد الله الأمناء وكان أنوش هو أول الكارزين.

بعدما سمع قايين اللعنة التي أوقعها الله عليه، انسحب من عائلة أبيه. كان قد اختار حرفته أولاً عاملاً في الأرض،

وبنى مدينة ودعاها باسم ابنه الأكبر. لقد خرج من حضرة الرب، وألقى بالوعد باسترجاع الفردوس بعيدًا عنه ليبحث عن أملاكه وتمتعاته في الأرض تحت لعنة الخطية، وهكذا صار رئيسًا للجمهور العظيم من الناس الذين يتعبدون لإله هذا العالم. وفيما يختص بالأمور الأرضية والصناعات والفنون والنجاح المادي اشتهر نسله ولكنهم كانوا عديمي الاكتراث لله ومقاومين لمقاصده نحو الإنسان.

أما نسل شيث فقد اتبعوا في البداية مثال هابيل ولكنهم بمرور الزمن بدأوا يجازفون قليلاً قليلاً للاندماج مع نسل قايين حتى نتج عن هذا الاندماج أسوأ النتائج، ذلك "أَنَّ أَبْنَاءَ اللهِ رَأُوا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ" (تك٦: ٢). فإذ اجتذب جمال بنات قايين وزينتهن الخارجية أنظار أبناء شيث أسخطوا الله بسبب تزوجهم بهن، بالرغم من تحذيرات كارزي البر المتتاليين ابتداءً من أنوش وانتهاءً إلى نوح ثامن الكارزين. فكثيرون من عبيد الله أغوتهم الإغراءات التي كانت أمام أنظارهم دائمًا لارتكاب الخطية، وبذلك خسروا صفة القداسة التي كانت طابعهم الخاص. وإذ اندمجوا بالفاسدين صاروا مثلهم في روحهم وأعمالهم، وأنجبوا نسلاً

فاسدًا بتأثير الأمهات من النساء اللائي تزوجوهن. وهذا يوضح بأجلى بيان عدم رضى الله نهائيًا ومنذ البداية عن الزواج المختلط أو غير المتكافئ من الناحية الروحية "فأي شركة للنور مع الظلمة؟" (٢ كو ٦: ١٤).

موقف آدم وموته

كانت حياة آدم حياة الحزن والاتضاع والانسحاق. ولما أُخرج من الفردوس أزعجته فكرة كونه لابد أن يموت، فامتلأ قلبه رعبًا. لقد اختبر حقيقة الموت في الأسرة البشرية يوم صار قايين ابنه البكر قاتلاً لأخيه، وإذ امتلأ قلبه ندامة مُرة على خطيته، وشعر بحزن مضاعف على ابنه هابيل، ولكون قايين قد رُفض انحنت نفسه تحت ضغط الحزن والألم. ولقد شهد انتشار الفساد المتفشي الذي كان سيسبب هلاك العالم بالطوفان، ومع أن حكم الموت الذي كان جابله قد حكم به عليه ظهر مرعبًا له في البداية، فإنه بعدما شاهد نتائج الخطية لمدة تقرُب من الألف سنة أحس أنها رحمة عظيمة من الله أن ينهي حياته المفعمة بالأحزان والآلام.

ربما يخطئ الإنسان وهو يظن أن خطيته لن تتعدى إطار حياته الخاصة... ولكنه يفاجأ بتأثير الخطية السيء في حياة الآخرين بصورة لا يمكن إيقافها حينما يفلت الزمام من يديه وتنتشر الخطية بصورة رهيبة تسبب له مرارة وألمًا وندمًا وحسرة. وقد حاول آدم أن يصد تيار الشر، وبكل حرصٍ حَرِص على كل ما أعلنه له الله واختزنه في قلبه، وجعل يتلوه على الأجيال المتعاقبة من نسله، كما أوضح لهم عن التدبير الرحيم الذي قد أعده لخلاصهم، ومع ذلك فقليلون جدًا هم الذين التفتوا إلى ما قال، وبعضهم كانوا يواجهونه باللوم والتقريع على خطيته التي جلبت على نسله كل تلك الويلات.

قافلة القديسين

وبالرغم من انتشار الإثم فقد كانت هناك قافلة من البطاركة القديسين الذين إذ عظمتهم ورفعت من شأنهم شركتهم مع الله عاشوا كعشراء السماء.

من أبرز أولئك القديسين "أخنوخ السابع من آدم". ومعنى اسم أخنوخ "المدرّب" أو "المحنك" أو "المهذب" أو "المكرس".

لم يعش أخنوخ على الأرض سوى ثلاثمائة وخمسة وستين سنة ولم يعمّر على الأرض مثل آبائه وأجداده ولكن الوحي ميّزه بعبارات مقدسة توضّح امتيازه في سلوكه في الحياة وفي الطريقة التي انتقل بها من العالم، فيقول عن حياته أنه "وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ" (تك٥: ٢٣) مكررًا العبارة مرتين.. ويعني أنه عاش في شركة مع الله، سائرًا في طريقه ووصاياه، وحسب مقاصده وكانت النتيجة أنه "لَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ" (تك٥: ٢٤)، لم يتركه الله كثيرًا في وسط العالم الشرير لأنه "مِنْ وَجْهِ الشَّرِّ يُضَمُّ الصِّدِّيقُ" (أش٥٧: ١) ولكنه أخذه إليه، نقله بدون أن يجوز الموت الجسدي ولا ذهبت روحه إلى الجحيم بل بقى منتظرًا الخلاص والفداء الذي وعد به الله، وفي هذا يقول عنه القديس بولس الرسول "بالإِيمَانِ نُقِلَ أَخْنُوخُ لِكَيْ لاَ يَرَي الْمَوْتَ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ نَقَلَهُ إِذْ قَبْلَ نَقْلِهِ شُهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أَرْضَى اللهَ" (عب١١: ٥).

أخنوخ رمز الأبدية في حياة البشر

ورد عن أخنوخ أنه عاش خمسًا وستين سنة وولد ابنًا وأسماه "متوشالح" ومعنى اسمه "مات فأرسل" مشيرًا بذلك إلى إرسال

الله الطوفان بعد موته مباشرة إذ أن الطوفان قد حدث في نفس السنة التي مات فيها متوشالح. ولعل أباه أخنوخ دعاه هكذا بروح النبوة معلنًا عن الطوفان الذي سيحل بالعالم ويدّمره..

وبعدما ولد أخنوخ متوشالح سار مع الله ثلاثمئة سنة، وفي خلال سني حياته الأولى أحب الله واتقاه وحفظ وصاياه.. ولكن بعدما ولد متوشالح حصل على اختبار أسمى، فقد وصل إلى ثقة وثيقة في القرب من الله، وتحقق، بأكثر يقين، من التزاماته ومسئوليته كإبن لله. وعندما رأى محبة الابن لأبيه وثقته البسيطة في حمايته، وحينما شعر في قلبه بالشوق العميق والحنو العظيم نحو ابنه البكر، تعلّم درسًا عظيمًا عن محبة الله العجيبة للناس في الفداء الذي أعده، والثقة التي يمكن لأولاد الله أن يضعوها في أبيهم السماوي.

وبواسطة الملائكة القديسين أعلن الله لأخنوخ قصده في إهلاك العالم بطوفان، وبسط له، بأكثر وضوح تدبير الفداء، وبروح النبوة حمله عبر الأجيال التي كانت ستعيش بعد الطوفان، وأراه الحوادث المتعلقة بالمجيء الثاني للسيد المسيح وانقضاء العالم.

صار أخنوخ كارزًا للبر، فأخبر الناس بما قد أعلنه له الله وأمره بإعلانه للآخرين. وإذ استعرض المناظر العجيبة التي كان قد رآها تنبأ قائلاً "هُوَذَا قَدْ جَاءَ الرَّبُّ فِي رَبَوَاتِ قِدِّيسِيهِ. لِيَصْنَعَ دَيْنُونَةً على الْجَمِيعِ، وَيُعَاقِبَ جَمِيعَ فُجَّارِهِمْ على جَمِيعِ أَعْمَالِ فُجُورِهِمُ" (يه ١٤، ١٥).

إن أهل ذلك العصر سخروا من جهالة ذلك الذي لم يحاول أن يجمع لنفسه فضة أو ذهبًا أو يبني لنفسه بيوتًا وتكون له ثروة. ولكن أخنوخ وضع قلبه على الكنوز الأبدية الباقية. كان ينتظر المدينة السماوية، ولقد رأى الملك، رب الجنود، في مجده وسط صهيون، وكان فكره وقلبه وسيرته وحديثه في السماء. وعلى قدر ما تفاقمت آثام الناس التهب قلبه شوقًا إلى مسكن الله. ومع أنه كان لا يزال على الأرض، ولم يكن الفداء قد تم، إلا أنه بالإيمان كان يسكن في ديار النور.

لمدة ثلاث مئة سنة سار أخنوخ مع الله، ومن يوم إلى يوم كان يتوق إلى اتحاد أوثق بالله، وكان في شركته مع الله يزداد قربًا منه حتى أخذه الله إليه.

أراد الله بنقل أخنوخ إليه أن يعلمنا درسًا هامًا. كان هنالك خطر من أن الناس قد تثبط هممهم بسبب النتائج المخيفة

لخطية آدم، فقد يصرخ كثيرون قائلين: "ما الفائدة من أننا اتقينا الله وحفظنا وصاياه ما دام لعنة ثقيلة قد حلت على الأرض والموت هو نصيب كل الناس؟"

طردت التعليمات التي أعطاها الله لآدم، ورددها شيث وعاشها أخنوخ الظلمات الحالكة ومنحت الإنسان الرجاء، حتى كما في آدم أتى الموت كذلك في الفادي الموعود به تأتي الحياة والخلود. لقد حاول الشيطان أن يقنع الناس بأنه لا ثواب للأبرار ولا عقاب على الأشرار، وأنه يستحيل على الناس أن يحفظوا وصايا الله. ولكن في حادث أخنوخ أعلن الله "أَنَّهُ مَوْجُودٌ، وَأَنَّهُ يُجَازِي الَّذِينَ يَطْلُبُونَهُ" (عب١١: ٦).

وهو يرينا ما يفعله لحافظي وصاياه، وقد تعلّم الناس أنه يمكنهم حفظ وصايا الله، وأنه حتى لو عاش الإنسان بين الأثمة والفاسدين يستطيع بنعمة الله أن يقاوم التجربة ويصير طاهرًا وقديسًا، ورأوا ذلك في حياة أخنوخ. وكان صعوده برهانًا على صدق نبوته بخصوص الأبدية بما يشملها من ثواب الفرح والمجد والحياة الأبدية لمن يطيعون، والدينونة والموت والويلات للعصاة.

وكما كان في حياته على الأرض كارزًا للبر ليس فقط لنسل شيث، بل لنسل قايين أيضًا... هكذا **صار صعوده شاهدًا للكل على صدق كلامه ونبوته وكرازته.** إن صفة التقوى التي كانت لهذا النبي تمثل لنا حالة القداسة التي ينبغي أن يصل إليها الذين "اشْتُرُوا مِنَ الأَرْضِ" (رؤ١٤: ٣) في مجيء الرب ثانية. وكذلك فكما كانت الحال قبل الطوفان، هكذا عند مجيء الرب سيعم الإثم كل مكان، فإذ يخضع الناس لأميال قلوبهم الشريرة والتعاليم الفلسفية الكاذبة سيتمردون على سلطان السماء. لكن شعب الله سيسعون، كأخنوخ، إلى نقاوة القلب والخضوع لمشيئة الرب، حتى ينعكس عليهم شبه المسيح. وكأخنوخ سينذرون العالم بمجيء الرب ثانية وبالدينونة التي ستحل بالعصاة. وبسيرتهم المقدسة ومثالهم الصالح سيدينون خطايا الأشرار. وكما نُقل أخنوخ إلى السماء قبلما هلك العالم بالطوفان، فكذلك الأبرار الأحياء سينقلون من الأرض قبل هلاكها بالنار. يقول معلمنا بولس الرسول "لاَ نَرْقُدُ كُلُّنَا وَلَكِنَّنَا كُلُّنَا نَتَغَيَّرُ. فِي لَحْظَةٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ عِنْدَ الْبُوقِ الأَخِيرِ" (١كو١٥: ٥١-٥٢) "لأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِهُتَافٍ، بِصَوْتِ رَئِيسِ

مَلاَئِكَةٍ وَبُوقِ اللهِ، وَالأَمْوَاتُ **فِي الْمَسِيحِ** سَيَقُومُونَ أَوَّلاً. ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ، وَهَكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ. لِذَلِكَ عَزُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِهَذَا الْكَلاَمِ" (١تس٤: ١٦-١٨).

لقد استراح الرب في اليوم السابع وصار العدد سبعة يرمز إلى الراحة الأبدية وجاء أخنوخ السابع من آدم وصعد إلى موضعه حيث نقله الله لكي لا يرى الموت وليكون رمزًا للراحة الأبدية.

وينبغي أن نلاحظ أن هناك فرقًا بين صعود أخنوخ إلى السماء وبين كينونة السيد المسيح في السماء. إذ أن السيد المسيح كائن في حضن الآب السماوي كل حين منذ الأزل وإلى الأبد. وهناك سماء تعلو عن سماء ومعرفة تسمو عن غيرها، وفرق بين الرمز والمرموز إليه...

الباب الرابع

دعوة إبراهيم

بعدما تشتت الناس من بابل كادت عبادة الأوثان أن تشمل العالم كله مرة ثانية، فترك الله العصاة القساة القلوب يسيرون أخيرًا في طرقهم الشريرة، بينما اختار أبرام الذي هو من نسل سام، وجعله حافظًا لعبادته ومعرفته وشريعته للأجيال القادمة.

لقد عاش إبراهيم في وسط الخرافات والوثنية، وحتى بيت أبيه الذين حفظوا معرفة الله ربما وقعوا تحت تأثير المؤثرات المضللة المحيطة بهم فعبدوا آلهة أخرى إلى جوار عبادة الله "كَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: آبَاؤُكُمْ سَكَنُوا فِي عَبْرِ النَّهْرِ مُنْذُ الدَّهْرِ. تَارَحُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ وَأَبُو نَاحُورَ، وَعَبَدُوا آلِهَةً أُخْرَى" (يش ٢٤: ٢).

ولكن الإيمان الحقيقي لم يكن لينقرض، فلقد حفظ الله دائمًا بقية يعبدونه، فآدم وشيث وأخنوخ ومتوشالح ونوح وسام في صف متصل، ومن جيل إلى جيل، حفظوا إعلانات إرادة الله الثمينة وقد صار ابن تارح وارثًا لهذه الأمانة المقدسة. كانت الوثنية تحاول أن تستهويه من كل جانب، ولكن عبثًا، فإذ

كان أمينًا ومؤمنًا بين الوثنيين، ولم يتنجس بالارتداد الشامل، تمسك، بكل أمانة، بعبادة الإله الحقيقي وحده، وقد أعلن الله إرادته لإبراهيم، وأعطاه معرفة ممتازة عن تدبير إرادته المقدسة، وعن الخلاص الذي سوف يتم بالمسيح.

لقد أعطى لأبرام الوعد الذي كان يعتز به أهل ذلك العصر، بوجه خاص عن النسل الكثير وعظمة أمتهم "أَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ وَتَكُونَ بَرَكَةً" (تك١٢: ٢). وأضيف إلى هذا الوعد اليقين الذي كان أثمن من كل ما عداه، بالنسبة لوارث الإيمان، أن من نسله يأتي فادي العالم، "وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ" (تك١٢: ٣). ولكن من أول شروط إتمام هذه المواعيد كان لابد أن إيمانه يجوز في امتحان، إذ كان الأمر يتطلب تضحية.

الأمر بالخروج

"وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ" (تك ١٢: ١).

لقد "ظَهَرَ إِلَهُ الْمَجْدِ لأَبِينَا إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ فِي مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ قَبْلَمَا سَكَنَ فِي حَارَانَ" (أع٧: ٢). أي أنه دعاه في أور

الكلدانيين "فَخَرَجَ حِينَئِذٍ مِنْ أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ وَسَكَنَ فِي حَارَانَ" (أع٧: ٤). كان لأبرام تأثير قوي على تارح أبيه فاستطاع أن يقنعه بالخروج من أور الكلدانيين إلى أرض كنعان. "وَأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ وَلُوطًا بْنَ هَارَانَ ابْنَ ابْنِهِ وَسَارَايَ كَنَّتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أُورِ الْكِلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتُوا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا هُنَاكَ. وَمَاتَ تَارَحُ فِي حَارَانَ" (تك١١: ٣١، ٣٢).

ولئلا يتعطل خروج إبراهيم من حاران جدد الله أمره لأبرام قائلاً "اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ" (تك١٢: ١). أو لعل صوت نداء الله كان لازال يدوّي في أذنيه لكي يخرج.

إن دعوة الحياة مع الله دائمًا، هي دعوة للخروج من العالم المنظور إلى العالم غير المنظور.. خروج من سلطان المادة وعبوديتها وتأثيراتها للاتجاه نحو أقدس العواطف في محبة الله. هكذا تبدأ علاقة الإنسان مع الله حينما يطرح عنه مشيئة الجسد ليتبع مشيئة الروح "وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللَّهِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. الَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ

بَلْ مِنَ اللَّهِ" (يو١: ١٢-١٣). ينبغي أن ينتمي الإنسان إلى مملكة السماء لكي يستحق أن يكون شريكًا في الميراث الأبدي وينال الموعد.

الذين يقبلون دعوة الله على مثال إبراهيم يخرجون من العالم.. أي من محبته والارتباط به لأن "مَحَبَّةَ الْعَالَمِ عَدَاوَةٌ لِلَّهِ" (يع٤: ٤). ويتركون نجاساته المتنوعة بما في ذلك الطمع الذي هو عبادة الأوثان المحرمة (انظر كو ٣: ٥). وسيظل صوت الله يدعو على الدوام "اخْرُجُوا مِنْهَا يَا شَعْبِي" (رؤ١٨: ٤). وأيضًا "اخْرُجُوا مِنْ وَسَطِهِمْ وَاعْتَزِلُوا، يَقُولُ الرَّبُّ. وَلاَ تَمَسُّوا نَجِسًا فَأَقْبَلَكُمْ" (٢كو٦: ١٧).

لم يكن إيمان إبراهيم من النوع النظري، بل كان إيمانًا عمليًا. إذ أنه قد خرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي ولكنه بالإيمان لما دُعي أطاع (انظر عب١١: ٨). عن هذا يقول معلمنا يعقوب الرسول: "أَلَمْ يَتَبَرَّرْ إِبْرَاهِيمُ أَبُونَا بِالأَعْمَالِ، إِذْ قَدَّمَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ على الْمَذْبَحِ. فَتَرَى أَنَّ الإِيمَانَ عَمِلَ مَعَ أَعْمَالِهِ، وَبِالأَعْمَالِ أُكْمِلَ الإِيمَانُ" (يع٢: ٢١-٢٢).

لم يتردد إبراهيم في إطاعة الدعوة، ولم يكن لديه سؤال يسأله عن أرض الموعد -لم يسأل هل كانت الأرض خصبة

والمناخ صحيحًا، ولا هل كان موقع البلاد والجيرة مقبولين، بحيث يتمكن من أن يجمع لنفسه ثروة هناك، فمادام الله قد تكلم فعلى عبده أن يطيع، إن أفضل مكان على الأرض هو ذاك الذي يريده الله أن يكون فيه.. فهناك السعادة الحقيقية.

لما كان أبرام في الخامسة والسبعين من عمره رحل إلى أرض كنعان مع زوجته وابن أخيه وجميع ما لهما من المواشي والخدام. ويحتمل أنهم ذهبوا عن طريق دمشق لأن أليعازر الدمشقي الموكل على بيته كان من هناك (انظر تك ١٥: ٢).

جماعة الراحلين

سمع إبراهيم صوت الله يأمره بالتقدم إلى الأمام، أما أخوه ناحور وأهل بيته فقد تعلقوا بوطنهم وأوثانهم، وإن لوطًا وحده، ابن هاران الذي كان قد مات قبل تارح أبيه، بالإضافة إلى سارة، اختار مقاسمة إبراهيم حياة الاغتراب، ومع ذلك فقد كانت تلك الجماعة التي نزحت عن بلاد ما بين النهرين جماعة كبيرة، ومن ذلك الحين كان إبراهيم يملك قطعانًا كبيرة من الغنم والماشية التي هي ثروة الشرق، كما كان

معه عدد كبير من العبيد والأتباع، لقد رحل عن بلاد آبائه على ألا يعود إليها، فأخذ معه كل أملاكه. فقد أخذ إبراهيم ولوط "كُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ" (تك١٢: ٥). ومن بين هؤلاء كانت جماعة مدفوعة باعتبارات أسمى من دوافع الخدمة والمصلحة الشخصية، وفي أثناء إقامتهم في حاران قاد إبراهيم وسارة الآخرين لأن يعبدوا ويخدموا الإله الحقيقي، فالتصق هؤلاء بعائلة ذلك الشيخ ورافقوه إلى أرض الموعد، "وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ" (تك١٢: ٥).

في شكيم

نزل أبرام وجماعته أولاً في شكيم، فهناك في ظلال بلوطات مورة، وفي واد فسيح به عشب كثير حيث كروم الزيتون والينابيع الجارية، بين جبل عيبال من هنا، وجبل جرزيم من هناك – في ذلك المكان نصب إبراهيم خيامه. وكانت البلاد التي أتى إليها إبراهيم جيدة وجميلة "أَرْضِ أَنْهَارٍ مِنْ عُيُونٍ وَغِمَارٍ تَنْبَعُ فِي البِقَاعِ وَالجِبَالِ. أَرْضِ حِنْطَةٍ وَشَعِيرٍ وَكَرْمٍ وَتِينٍ وَرُمَّانٍ. أَرْضِ زَيْتُونِ زَيْتٍ وَعَسَلٍ" (تث ٨: ٧و٨).

ولكن في نظر ذلك الرجل الذي كان يعبد الله، جثم على ذلك التل المكسو بأشجار الغابات، وعلى ذلك السهل الخصيب، ظل مزعج. ذلك أنه "كَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ" (تك١٢: ٦). لقد وصل إبراهيم إلى مطمح آماله ليجد بلادًا يحتلها شعب وثني.. ففي الغابات أقيمت مذابح للآلهة الكاذبة إذ كانت الذبائح البشرية تقدم على المرتفعات المجاورة. وإذ كان إبراهيم متمسكًا بالوعد الإلهي نصب خيمته وكانت تتنازعه المخاوف والأحزان، "وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: **لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ**" (تك١٢: ٧). فتقوى إيمانه موقنًا أن الله معه، وأنه لن يتركه تحت رحمة الأشرار، "فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ" (تك١٢: ٧). وإذ كان لم يزل متغربًا فسرعان ما انتقل إلى بقعة قريبة من بيت إيل، ثم عاد وبنى هناك مذبحًا للرب ودعا باسم الرب.

أبرام رجل العبادة الصلاة

إن أبرام الذي هو "خليل الله" يقدم لنا مثالاً نبيلاً، لقد كانت حياته حياة الصلاة، فأينما نصب خيمته كان يقيم إلى جوارها مذبحًا، داعيًا كل من في محلته للاشتراك معه في تقديم

الذبائح الصباحية والمسائية، وحين كان ينقل خيمته كان المذبح يظل قائمًا، وحدث في السنين التالية أنه كلما أتى واحد إلى ذلك المذبح عرف الشخص الذي كان هناك قبله، وبعدما ينصب خيمته كان يرمم المذبح ويقدم عبادته لله الحي.

لقد كان واضحًا أن المذبح هو علامة العلاقة بين الله والإنسان وأن العبادة المقبولة من الله هي من خلال الذبيحة، التي هي بالإيمان، رمز للفداء الذي كان الرب مزمعًا أن يصنعه بنفسه لأجلنا. فذبيحة الصليب هي وحدها الطريق إلى أحضان الآب السماوي المحب.

وخدمة المذبح هي مركز الخدمة في الكنيسة. وحولها تدور باقي الخدمات والصلوات. فمن خلال ذبيحة المسيح الحاضرة على المذبح وهي بعينها ذبيحة الصليب التي قدمت على الجلجثة – من خلال هذه الذبيحة نجد قبولاً أمام الله الآب الذي صالحنا لنفسه بدم المسيح.

أبرام في مصر

واصل أبرام رحلاته نحو الجنوب، ومرة أخرى أُمتُحِن إيمانه. لقد منعت السماء أمطارها ولم تعد جداول المياه تفيض في الأودية، وجفت مراعي السهول، فلم تجد قطعان الغنم أو الماشية مرعى، وهددت المجاعة المحلة كلها. فلكي يتقي شر الجوع نزل إلى مصر.

إنه لم يهجر أرض كنعان، ولم يرجع، وهو تحت ضغط محنته، إلى أرض الكلدانيين التي أتى منها والتي كان الطعام فيها بوفرة، ولكنه قصد الالتجاء، بصفة مؤقتة، إلى بلد يكون قريبًا، بقدر المستطاع، من أرض الموعد، وكان يقصد أن يعود بعد قليل، إلى حيث قد أنزله الله.

وفي أثناء وجود إبراهيم في مصر برهن على أنه لم يكن متحررًا من الضعفات والنقائص البشرية، ففي إخفائه لحقيقة كون سارة زوجته كشف عن عدم ثقته في رعاية الله وعنايته، وفي افتقاده إلى ذلك الإيمان الرفيع والشجاعة النادرة اللذين تمثلا في حياته كثيرًا بجلال عظيم.

كانت سارة حسنة المنظر، ولم يشك في أن المصريين قد يشتهون تلك النزيلة البارعة الجمال، وأنهم لن يتحرجوا من

قتل رجلها في سبيل الظفر بها. وقد ظن أنه لا ينطق بالكذب بقوله عنها أنها أخته، لأنها ابنة أبيه وإن لم تكن ابنة أمه (انظر تك٢٠: ١٢)...

وبسبب عدم إيمان إبراهيم الكامل في ذلك الموقف وقعت سارة في خطر عظيم ولكن الله المحب حفظها.. فعندما سمع ملك مصر وصفًا لجمالها أمر بنقلها إلى قصره، وكان يريد أن يتخذها له زوجة، ولكن الرب في رحمته العظيمة حفظ سارة بإرساله الضربات على العائلة المالكة، وبهذه الوسيلة عرف الملك حقيقة الأمر. والمرنم يشير إلى هذه الحادثة، في معرض كلامه عن الشعب الذي اختاره الرب، إن الله "وَبَّخَ مُلُوكًا مِنْ أَجْلِهِمْ. قَائِلاً: لاَ تَمَسُّوا مُسَحَائِي وَلاَ تُسِيئُوا إِلَى أَنْبِيَائِي" (مز١٠٥: ١٤،١٥). هناك مشابهة عجيبة بين اختبار إبراهيم في مصر، واختبار نسله من بعده بعدة قرون...

إبراهيم تهلل أن يرى يومي

وعد الله إبراهيم أن يعطيه نسلاً من سارة امرأته ليقيم عهده معه ويرث الأرض التي جاء به إليها. وقال له: "عَهْدِي أُقِيمُهُ

مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ" (تك١٧: ٢١). وقال "بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ" (تك٢١: ١٢).

وتمم الله وعده لإبراهيم ووُلد إسحاق من سارة، هذا الابن الذي طالما انتظره إبراهيم كل هذه السنين.

لكن ظل إبراهيم يتساءل: كيف سيتم الفداء والخلاص؟ فإسحاق هو إنسان مثل أي إنسان، وهو نفسه محتاج إلى الخلاص. وربما حذَّر الرب إبراهيم من أن فهم هذا الأمر سوف يكون ثمنه غالٍ جدًا، لكن لما وجده مصممًا قال إذن "خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ الَّذِي تُحِبُّهُ إِسْحَاقَ وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ" (تك٢٢: ٢)..

وإبراهيم لشدة اشتياقه للوصول إلى فهم المقاصد الإلهية المخلِّصة: "بَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحاً وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ وَشَقَّقَ حَطَباً لِمُحْرَقَةٍ وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ" (تك٢٢: ٣).

وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد، وقد بدأت الآلام تعتصر قلبه من الداخل، لأنه سيذبح ابنه بيده. ثم وصل إلى المكان وربط إسحق ورفع السكين

وهمَّ ليذبحه. في وسط هذه المشاعر بدأ يفهم مقدار محبة الله الآب عندما يبذل ابنه الوحيد ليقدمه ذبيحة عن حياة العالم كله. فكما حمل إسحق حطب المحرقة، كذلك حمل المسيح خشبة الصليب. وكما رجع إسحق حيًا هكذا قام المسيح حيًا من الأموات. لذلك قال السيد المسيح "أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى **يَوْمِي** فَرَأَى وَفَرِحَ" (يو٨: ٥٦). هذا اليوم يقول عنه المزمور "هَذَا هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ فِيهِ" (مز١١٧: ٢٤).

رؤيا يعقوب أب الآباء

إسحق ولد عيسو ويعقوب. وخرج يعقوب هاربًا من بيت أبيه وهو مهدد بالقتل من أخيه عيسو، ولكنه حمل معه بركة إسحق أبيه الذي جدد له عهد الموعد، وأمره، كوارث لذلك العهد، بأن يتخذ لنفسه زوجة من عائلة أمه في ما بين النهرين.

كان الموت يحيط بيعقوب **ويهدد حياته على الأرض، كما يهدد مصيره الأبدي**. إذ أنه كوارث للوعد بالخلاص، وكحامل للنسل المقدس الموعود به الذي منه يأتي المخلص،

كان رجاؤه هو أن يقيم نسلاً حسب الوعد، وبه يتم الخلاص والانتقال من الموت الأبدي إلى الحياة الحقيقية في أحضان الله.

أحس يعقوب وهو يمشي وحيدًا تمامًا في برية موحشة، بحاجته إلى حماية الله، فصرخ إلى الله في انسحاق شديد وبكاء معترفًا بخطيته وبكل خطاياه التي سبق أن اعترف بها أمام إسحق أبيه.. وإذ كان قد تعب من السفر اضطجع على الأرض وتوسد حجرًا، ففيما كان نائمًا أبصر سلمًا لامعة ومنيرة ارتكزت على الأرض ورأسها يمس السماء، ورأى على هذه السلم ملائكة السماء يصعدون وينزلون، ورأى في أعلاها رب المجد (انظر تك ٢٨: ١١-١٣).

في هذه الرؤيا بسط الرب تدبير الفداء أمام يعقوب، لا في كل ملئه، وإنما في بعض جوانبه على قدر ما كان لازمًا وجوهريًا له في ذلك الحين. وأكّد الرب ليعقوب حتمية تنفيذ الوعد بالخلاص، وأنه سيكون حافظًا له حيثما ذهب كحامل للبركة وكموضوع لتجديد الوعد.

رموز السلم في رؤيا يعقوب

١. السلم يرمز إلى عودة الشركة بين السماء والأرض – تلك التي ضاعت بسبب خطية الإنسان وأعادها السيد المسيح.

٢.السلم يرمز للتجسد الإلهي العتيد فالرب الذي في أعلا السلم سوف ينزل متجسدًا "الْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا" (يو ١: ١٤).

٣.السلم يرمز إلى الصلاة المستجابة التي يحملها الملائكة إلى الله وينزلون بالبركة.

٤.السلم يرمز إلى الصليب الذي ارتفع عليه السيد المسيح وصنع به قنطرة لعبور المفديين من الهاوية والظلمة إلى السماء والنور.

٥.السلم يرمز إلى السيد المسيح نفسه الذي قال "أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ" والطريق إلى السماء هو السلم الروحاني – لهذا قال السيد "لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي" (يو١٤: ٦).

٦.السلم يرمز إلى السيدة العذراء مريم والدة الإله التي قال لها الملاك "الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَي ابْنَ اللهِ" (لو١: ٣٥). لهذا نقول في التسبحة في ثيئوطوكية السبت [أشبهت

بالسلم التي رآها يعقوب مرتفعة إلى السماء والرب عليها بخوف] والكنيسة تلقب العذراء بأنها "باب السماء".

٧.السلم رمز للكنيسة بيت الله، وبيت الملائكة. لهذا قال يعقوب حينما استيقظ بعد الرؤيا "حَقًّا إِنَّ الرَّبَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ.. مَا هَذَا إلاَّ **بَيْتُ اللهِ** وَهَذَا بَابُ السَّمَاءِ" (تك٢٨: ١٦-٢٢). في الكنيسة وعلى المذبح الإلهي يكون حاضرًا السيد المسيح بذبيحة نفسه – جسده ودمه الأقدسين – وبتناولنا من الذبيحة نرتفع إلى السماء ونستحق الحياة الأبدية بغفران خطايانا. كما أن السماء تكون حاضرة بحضور السيد المسيح نفسه في سر الإفخارستيا بجسده ودمه الحقيقيين.

٨.السلم رمز للكهنوت في العهد الجديد. فالكاهن هو وكيل سرائر (أسرار) الله، يقف أمام الله ليصلي عن الشعب ويتجه إلى الشعب يحمل إليهم بركات الفداء والخلاص ويخدم في وسطهم خدمة المصالحة، كقول معلمنا بولس الرسول "أَعْطَانَا خِدْمَةَ الْمُصَالَحَةِ" (٢كو٥: ١٨) "أَيْ إِنَّ اللهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ حَاسِبٍ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ، وَوَاضِعًا فِينَا كَلِمَةَ الْمُصَالَحَةِ" (٢كو٥: ١٩).

الكاهن بهذا يمثل سلمًا للاتصال بين السماء والأرض وعودة الشركة بين الله والإنسان، فالروح القدس في سر الكهنوت يمنح الكاهن نعمة خاصة لتوصيل عمل السيد المسيح في الفداء إلى أنفس الكثيرين لينالوا الحياة الأبدية.

أشعلت هذه الرؤيا في نفس يعقوب أبينا موهبة رئاسة الآباء التي فيه كأحد البطاركة الأول فقام بتدشين الحجر الذي كان تحت رأسه أثناء الرؤيا فأقام الحجر وصب عليه زيتًا ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل أي بيت الله. وبالرغم من أنه قد نال هذه الموهبة بوضع يد إسحق أبيه على رأسه إلا أنه لم يمارسها إلا بعد أن اختبر الرب عمليًا في حياته، ودخل معه في عشرة وعلاقة شخصية. هذه العلاقة لم تقف عند حد هذه الرؤيا بل امتدت في مسيرة عمره حتى النهاية.

وقد نذر يعقوب – إذ دخل فى علاقة شخصية مع الله – أن يكون الرب له إلهًا، وهذا الحجر الذي أقامه عمودًا بيتًا لله، أو بيت الله، وأن يعشر للرب كل ما يعطيه له الله.

لم يكن يعقوب هنا يسعى في عقد شروط مع الله، فقد سبق الرب فوعده بالنجاح، وإنما كان هذا النذر هو فيضان قلبه

الذي امتلأ شكرًا لله الذي وعده بالحب والرحمة، لقد أحس أن لله عليه حقوقًا، ومن واجبه أن يعترف بها.

فهرس

الصفحة

تقديم نيافة الأنبا ماركوس ٩

مقدمة ١١

الباب الأول: تدبير الخلاص وخلقة العالم ١٣

الباب الثاني: خلق الأرض والإنسان ٣٩

الباب الثالث: بداية رحلة البشرية في طريق الخلاص ٥٥

الباب الرابع: دعوة إبراهيم ٧٩